القسم الثالث

العقل العربي

على خريطة مناهج التفكير

الفصل الأول

خريطة مناهج التفكير في العالم

والعوامل التي اختلفت بها هذه المناهج

الإنسان المؤمن الأول:

منذ سار الإنسان الأول على سطح هذه الأرض، السطح الذي رآه بمشيئة الله ورحمته منبسطًا وهو متكور، وأحس به ساكنًا وهو متحرك، أتيحت له في مرحلة هذا الابتلاء له على هذه الأرض، وتحت هذه السماء، فرصة أن يتحرك بفطرته مدفوعًا مع غيره من الكائنات الحية بقانون حفظ الذات، ومعه قانون حفظ النوع، مع دوام البحث عن الأمان في سعيه، والتحري للتكيف والتوازن مع الواقع المحيط به، سواء بالتأثير فيه، أو بالتأثر به، في حين هو يمد سمعه وبصره إلى أقصى ما يملك، بين كل ما سخره الله له – برغم مخاطره – من موارد الأرض والسماء، متسمعًا للهواتف، وباحثًا عن الحاجات، ومتعلمًا بتجاربه المريرة والحلوة ما لم يكن يعلم....

في تلك الأيام الأولى، وقبل أن يتكاثر الإنسان فيملأ الأرض لم يكن قد انتهى من كثرة ما كابد من المشقات، من "تلخيص" الكون المحيط به تلخيصًا لغويًا بأصواته، وتحت الكلمات والأسماء التي علمها الله له، وأودعها من أول الخلق في فطرته.

لم يكن هذا الإنسان الجوال ، المروَّع، قد استكمل لغته، أو اختراع الكتابة لهذه اللغة.. لم يكن قد بني بيتًا من أشجار الغابة أو أحجار الجبل، أو أقام لأبنائه على سطح الأرض مدرسة.. في تلك الأيام الأولى كان كل ما يستطيع أن يراه بعينيه، أو أن يسمعه بأذنيه، أو أن يتصوره بفكره تحت قبة السموات، وفوق أديم الأرض، ونحو أضواء الأفق، هو مدرسته، وأن الله الذي آمن به منذ أبيه آدم هو مرشده، وأن عليه أن يتقبل الابتلاء بعد الجنة التي خرج منها، ليعمر هذه الأرض بالخوف من الله، والإقبال

عليه ، والاستهداء به، ليزداد علمًا وعدلاً وأمنًا، وهو يشق طريقه المفتوح وراء الغيب باتجاه هذه الجنة ليعود إليها...

لقد اكتشف من أول الأمر – قبل أن يغفل عن ربه فيتدهور في أهوائه وأطماعه – أن أشعة الواقع الحي، ونسماته ، وكلماته، تنفذ إليه من جدران ونوافذ "غرفة نفسه" لتضئ كل ما بداخله من حقائق ، ومعان، وكلمات، ورموز، تلتقي وتتقابل مع هذا الواقع، وبذلك كان يدرك وحدة هذا التلاقي والتناظر والتفاعل بين قوانين هذه الأرض التي خرج من ترابها ومائها بالخلق والحياة، وبين الأمل الظاهر أمامه في أن يسودها بالعقل والعلم، وأن ينجو من مخاطرها بالصدق والإيمان.

ولقد وضح له بمتابعة التفكر، وإرهاف السمع، ومد البصر إلى بعيد، أن هذا البحر الزاهر من حركة الأشياء في أصواتها، ومشاهدها، ومتغيراتها كان ينعكس دائماً على مرآه فكره اليقظ على ثلاث مرايا، يرى عليها الشيء الواحد من حوله في ثلاث صور في نفسه أو فكره.. إنه يرى الشيء بداخله كما هو.. ثم يراه أيضًا كما كان.. ثم يراه بجانب ذلك كما سوف يكون. لقد دخلت إذن حركة الزمان ونسبتها إلى فكره، بقدر ما اختزنه من ملخصات واقعه من المعاني والكلمات ، لكي يستكمل بحركة الزمان وحركة المكان ونسبتهما معًا أداة تفكيره، ولكي ينمي هذا الوعي التفكيري حالة الصحة لعقله، وذلك في ضوء سلامة قيادة الإيمان لهذا الوعي والتفكير..

ويمضى الإنسان الأول المؤمن في ضوء تفكيره النامي داخل صروح الأرض، وتحت قباب السماء، يمتحن رتوقها وفتوقها، وهو يمد يده إلى الأشياء القريبة منه فيكتشف "العلاقة"، ويمد سمعه وبصره إلى الأشياء البعيدة عنه فيكتشف "المجال"، وينفذ بفكره المستطلع إلى كنه

الأشياء الغريبة عليه فيكتشف "الاتساق" . ومن العلاقة والمجال والاتساق اكتشف ما أمكن تعميمه من ظواهر الطبيعة بغير استثناء، أي إنه اكتشف بذلك أول قوانينها وهو يسجل من غير ضجة أول اللبنات في صرح العلم.

ثم يمضى هذا الإنسان المؤمن في ضوء ما أدركه من الاتساق في الكون، وما كشف عنه من أول قوانين العلم، فيفتض مساحة أكبر من حصانات الطبيعة وأسرارها، وهو يلمح بإنبهار وخشوع هذا التوازن الدائم بين كل مشيدات الخلق في وحداتها ومركباتها. لقد أخذ هذا الإنسان المتحرك بغير أنيس سوى رؤيته العقلية يرى كل أبنية الحياة، وتدفقات العناصر، وتراكمات الجوامد، تنشأ وتتكامل ، ثم تنتفض وتنحل ، عابرة جسر الموت أو الانهيار، لتعود فتنشأ بنضارة الحياة من جديد، دون أن تلمح عينه في هذا الموكب الزاخر بالخلق والتغير، والبزوغ والأفول، والبدء والإعادة أية لبنة تنشز أو تسقط، أو يبقى مكانها من بعدها شاغرًا في صحوة البناء المتكامل، أو رجعة الانحلال الشامل. لقد وقع في يقينه وهو "يرجع البصر" في معطيات الخلق، ومشاهد السماء والأرض، وحركة الأشياء في حواراتها ومتغيراتها، أنه ليس هنا أو هناك على مرمى بصره، أو وراء خياله، أي "تفاوت" أو "اختلال" أو فطور..

إن بصيرته في عقله وقلبه أخذت تلمح في مسرى الأشياء قانونًا أعظم من كل القوانين.. قانونًا لا تتصادم به القوانين .. إنه القانون الذي يكون به كل شيء متى ينبغي له أن يكون، وحيث ينبغي له أن يكون كما ينبغي له أن يكون.. إن بصيرته تلمح العدل في كل شيء.. ومن وراء العدل تكتشف البرهان الحسي على الله..

بهذا التدرج في إدراك اتساق الواقع إلى أبعد مدى من الشمول، ومع التوازن معه في الحركة والاستجلاء والاستهداف، تحدد للإنسان الذي صحت فطرته، وصح عقله ثمرة لصحة منهج تفكيره، جوابه الصحيح باتجاه الإيمان بالله، واليقين بصحة هذا الإيمان بالله الواحد الأحد، واهب الحياة، ومالك الملكوت ، الخالق المدير، والآمر المطاع، والرحمن الرحيم.

اختلاف مناهج التفكير:

لقد كان مثل هذا الإنسان الفطري، المتحرك في أول الزمان بحواسه السليمة في أوسع مجال للحركة والرؤية، خليقًا بأن يهتدي إلى برهانه الحسي واليقيني على الله، أعظم وأقوى من اهتدائه إليه بمجرد وصية الآباء، لكي تصبح عقيدته بهذا البرهان هي الدين الحق، والدين القيم ، والإسلام الخالص.

ولكن على رقعة الأرض المختلفة المناخ والموارد والمواقع، بين الحر والبرد، وبين الخصب والجدب، وبين العزلة والزحام، لم يكن في وسع الإنسان وهو يتكاثر إلى شعوب وأمم هنا وهناك أن يلقى الطبيعة والواقع والأشياء بمنهج واحد من التفكير.

لقد اختلف المناخ والخصب والموقع على سطح الأرض فاختلفت خريطتها الجغرافية والاقتصادية بالقدر الذي اختلفت به علاقات الإنسان وتوازناته في كل بقعة متميزة على هذه الخريطة، وذلك من حيث الحركة والاستقرار ومن حيث الأمن والخوف، والحاجة والكفاية، ونتيجة لهذا اختلفت آثار هذه العلاقات على تشكيل عقيدة الإنسان وعمله، وتحديد غاياته وطموحه ، وفرض أنواع حكوماته ونظمه..

إن الصحراء الملتهبة الرمال، الموحشة البداء، والتي يشح فيها الماء فلا تتوقف فوقها الحركة طلبًا لمنابعه، هي غير أحواض الأنهار الخصبة الظليلة، وغايات خط الاستواء تحت سمائها المنهمرة، وهما معًا غير جبال الشمال الجليدي، وغاباته التي تحاصرها الثلوج، وتكتنفها الظلمة، ويقسو عليها الجدب..

لقد اختلف المناخ وعوامل البيئة الأخرى بين رقعة وأخرى على سطح الأرض ، وبهذا الاختلاف انعكست قوانين الطبيعة متباينة التأثير على هذا السطح الكروي الدائب التغير في تأثره بالشمس والمطر والرياح، بما يمتد تأثيره على توزيع الإنسان والحيوان والنباتات فوق بقاع الأرض المتباينة، مع امتداد هذا التأثير على خصائص الإنسان البدنية والفكرية والنفسية واللغوية، بل وعلى لون بشرته، ونوع أطعمته، وأخيرًا على نظمه ومعتقداته..

وهكذا كان من المحقق – بما يدركه المؤمنون من حكمة الخالق – أن إنسان القطب المتجمد شمالاً أو جنوبًا ليس في انعكاس آثار بيئته على صور وأهداف حياته هو كإنسان المناطق الحارة الاستوائية في آسيا وإفريقية، أو هو كإنسان البادية الجدباء في جزيرة العرب، مع ضياء آفاقها، وندرة مائها، ومتعة ساكنيها..

إن الإنسان المعاصر في جانب واحد من جوانب تقدمه قد استطاع أن يسجل الكثير من هذه الخرائط الإحصائية والبيانية، في مجالات الاقتصاد المتنوعة، وأنواع الموارد ، وأنواع الأعمال، وأعداد السكان، وخصائص الطبيعة من الرياح والأمطار والزلازل والبراكين، وحتى في الدراسات النفسية والإنسانية سجل الخرائط والإحصاءات حول توزيع الأفكار والأديان والمذاهب السياسية، والتي هي كلها من آثار اختلاف

المواقع الجغرافية والمناخية. ولكنه حتى الآن لا يزال عاجزًا عن اقتحام العقبة أمام حتمية الاستهداء والاسترشاد بهذه الخريطة الجغرافية المنتظرة، والتي تحدد بالأمانة العلمية والصدق هذه العلاقة القانونية بين البيئة بكل مؤثراتها الطبيعية والبشرية والزمنية على تكوين عقل الإنسان، وتحديد منهج تفكيره، مرتبطًا ذلك في نفس الوقت بخصائص لغته، ووجهة تفسيره للحياة في دينه وعقيدته.

ولكن في ضوء الواقع المتجدد بقوانينه الثابتة كيف تنتظر أن تتقدم الدول القوية المعاصرة فتضح بأمانة العلم، وشرف الغاية، ما لا علم لها به من هذه الخرائط الصحيحة لمناهج التفكير، أو أن تقبل بهذه الخرائط إذا ما وضعها من يربط صحة العقل بصحة الإيمان ، ومن يربط درجات التقدم الإنساني والأخلاقي بين الشعوب بما يصدر عنها وعن دولها من العدل وليس الظلم، ومن الصدق وليس التزييف، ومن السلام وليس العدوان، ومن يقول إن الصحراء العربية التي هي بيت الآيات المشرقات، ومهد الرسالات الهادية هي بيئة المناخ الصالح لمنهج التفكير العلمي، ونشأة العقل الديني، وإشراق العمران الإنساني..؟

إن مثل الشيوعية في غلوائها، والرأسمالية في أهوائها لا تملك في خضم أخطائها وخطاياها أن تميل برأسها نحو هذا الاتجاه الذي يدين مناهج تفكيرها، وجذور بغيها، وكواذب شعاراتها ، وهي تتفلسف، وتفكر وهي تقفز تحت الضباب، وفوق الجليد، أو وراءهما بجوار المدافئ، في العدوان الذي يملكه الملوك والأمراء والدوقات على من تحت ليسلبوهم الحرية، وثمار العمل، ويستمتعوا ويفجروا فوق أنقاضهم، ثم في العدوان أبعد من ذلك على من يملكون هناك حول الساحل الجنوبي والشرقي للبحر الأبيض نعمة الدفء والخبز والمتاع.. إنه يفكر في إسار

الجوع والجليد هذا التفكير الغريزي العدواني الضيق في حين لا يخجل فيفخر بهذا الفكر التجريدي السطحي غير العلمي، والاستبطاني غير الواقعي، والطبقي غير الجماعي، والعدواني غير السلمي..

هذا غير الطبيعة التي فرضت على قاطنها مع وفرة الخصب وسط حرارتها الشديدة، وتحت أمطارها الدائمة، أن يسترخى من شدة الحر، وأن يتوقف عن العمل من وفرة الخصب، وأن تتملكه الأساطير في ظلمات الغايات، فهو يفلسف استرخاءه واستغناءه عن العمل بأنه لا حاجة إلى العقل، فالعقل عنده وهم، مستغرقًا بعد هذه المقدمة في شخوصه الباطني باتجاه الفناء والعدم أو "النيرفانا" إلى أن تتحقق له الخوارق بهذا الفناء العقلي والبدني، أو أن يتحقق له في وهمه هذا الاتحاد مع الروح الأعلى الذي يعبده وهو يرهمن بالغًا إلى هذه الغاية الخرافية إلى جوار حياة الترف الباذخ للملوك والمهراجات يفكر لا فكر فيه، وإنسانية خاوية لا إنسان بها !!.

هذه المناهج الأساسية للتفكير على خريطة الأرض الجغرافية والبيئة يمكن أن نعيد صياغتها على الوجه التالي:

أولاً- المناهج المهيأة لصحة التلقي والتقبل لدين الله ورسالاته، وقد ظهرت على أرض العرب منذ رسل الله آدم ونوح وحتى إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى ومحمد، وحيث لا يزال الوطن العربي هو القلب المضيء والعقل المفتوح لتقبل وتجديد الإيمان والعمل بهذه الرسالات من مصادرها الباقية إلى الآن في محكم القرآن المبين، وأسوة الرسول الأمين.

ثانيًا – مناهج الفكر الفلسفي كما ظهرت ولا تزال تظهر في تعاقب ظنونها منذ القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد اليونان، والتي انتهت

بالعلم المتقدم اليوم إلى هذا الصراع الظاهر والخفي على سيادة الشعوب، وسرقة مواردها، بين القوى الشيوعية والرأسمالية..

ثالثًا- مناهج هذه الشخوصية الاستبطانية، والحلولية العدمية بمفهومها الهندي، والتي عاشت في صورها السلبية الفينائية المتعاظمة على الحركة والعقل، والبالغة التركيز على العدوان على مقومات الإنسان السليم في صحة بدنه، وعقله، لتصنع السلام فقط تجاه الحيوانات والحشرات التي تتأثم بقتلها إن روح برهمن حل فيها.

الخريطة الجغرافية للأفكار:

لا شك أن أية دراسة علمية وتاريخية شاملة لحياة الجنس البشري تعني بتسجيل جميع المؤثرات على شكل واتجاه عقيدته، وخصائص لغته، ستكشف لنا في بدايتها عن هذه الحقيقة البسيطة وهي أنه منذ اليوم الأول للإنسان على هذه الأرض فإن علاقته بالطبيعة المحيطة به مهما تعددت أنواعها أخذت شكل الإجابة المستمرة عن هذين السؤالين:

السؤال الأول: ماذا بالطبيعة المحيطة به من الأمن لجسده .. أي ماذا بها من الغذاء والكساء والرخاء؟

السؤال الآخر: ماذا بهذه الطبيعة المحيطة به من الأمن لفكره وعقله.. أي ماذا بها من التفسير العلمي لما يحيط له.. التفسير الموجه لعقيدته والمرشد لسلوكه؟

إذن فالأمن السابغ لجسم الإنسان الذي هو بيت حركته، والأمن المضيء لعقله الذي هو بيت عقيدته، هما محور علاقة الإنسان في أي مكان وزمان بالطبيعة وحركتها ومؤثراتها المحيطة به.

ولقد شاء الله فتحددت على الخريطة الجغرافية والمناخية للأرض ثلاثة مناهج أساسية أصلية لأفكار ومعتقدات الإنسان نتيجة هذه العلاقات والمؤثرات البيئية على حواس الإنسان وفكره وحركته وغابته، في جميع عصور التاريخ البشري وإلى اليوم، وهذه المناهج المتباينة على سطح الأرض وفق هذا القانون الذي لم يشأ به أن يكون الناس في حكمته "أمة واحدة" – هي كما يلي:

أولاً- الطبيعة التي فرضت على قاطنها بجدبها وأضوائها وقلة مائها وحريته الكاملة بها ألا يتوقف في سعيه فوقها عن الحركة والتفكر بين أرضها وسمائها، ليكتشف باتساق ما خوله برهانه على الله، فيؤمن به، ويعتز، ويعتز بحياته في طاعته، وهو بإيمانه وسط آيات الله الحية من حوله يتحصن بفكره العلمي واليقيني عن أي وهم فلسفي، حفاظًا مع إيمانه على خلقه السلمي غير العدواني، والواقعي غير الأسطوري، والجماعي غير الطبقي.

ثانياً- الطبيعة التي فرضت على قاطنها بجدبها وجليدها وظلماتها أن يملكه الشك والخوف، وأن تثقل عليه الحركة والرؤية، وأن يشتد به الخيال الجائع والشريد وراء الدفء والمتاع، فيكتب الأساطير والفلسفات، وهو يخطط ويدبر باتجاه أرض الدفء والقمح والكروم، ليغزو ويتوسع.. باتجاه أرض العرب..

ثالثًا- الطبيعة التي فرضت على سكانها عند خط الاستواء وسط ظلام الغابات، وانهمار الأمطار، ووفرة الرخاء، هذا الميل إلى الاسترخاء، والانصراف عن العمل، والاستغناء عن التفكير بالغوص في أوهام السحر والأساطير.

وهكذا بالأمس البعيد ، والأمس القريب، وحتى اليوم، لا تزال هذه المؤثرات الجغرافية والمناخية تشكل مناهج التفكير بين البشر وفق هذه الاتجاهات الأساسية والأصلية التي أوجزنا بيانها وهي البيئة المهيأة لتقبل الدين الحق، إيمانًا به ودعوة إليه، والأخرى المهيأة لفلسفة الحلول وطرح العقل والعمل، والثالثة المتقلبة في فلسفات العدوان والشذوذ والصراع، ومعنى ذلك أن الأمة العربية في صحوتها المعاصرة تملك- كما ملكت من قبل – وبعيدًا عن أي شكل من أشكال التفلسف، أن تستعيد مقوماتها الأصلية من اللغة الفصحى، ومن الدين الحق، متوجهة إلى أعظم غاياتها ببناء المجتمع المؤمن على ركائز العلم والإيمان ، والسواسية والعدل، والرخاء والسلام،

الفصل الثاني

فوق الأنعام وبين الآفاق والآيات

أضاء العرب برهانهم الحق على الله

نعم يقص علينا القرآن الكريم من أخبار الماضي القريب في مشرق الإسلام بالدعوة الخاتمة، حياة هذا الإنسان العربي قبيل الدعوة سيرًا فوق إبله بين آفاق الأرض، وآيات السموات. لقد كانت الإبل يومذاك نعمة وآية من الله لهذا الإنسان المعتز ببدائه وحريته، وببيانه ومعروفه. لقد كانت آية حية، مسخرة بكل منافعها وذكائها وبصيرتها له، مثل السماء المشرقة، والجبال الشاهقة، ومثل امتداد هذه الأرض المبسوطة أمامه ليستهدى عليها، وليستثمر المغيب والظاهر من خيراتها..

وها هو القرآن باق بكل جدته وهدايته بيننا، وهو كما نراه لا يصف من صور الحياة النابضة في الأرض، ومن المشاهد البشرية بين البيئات المتنوعة المناخ والموارد والمواقع، إلا هذه الصحراء العربية غير ذات الزرع والأنهار.. الصحراء التي تحرك فوقها قوم النبي، وتكاثر بالسعي في أرجائها، وبالارتباط التجاري بالعالم الخارجي من موقعها، أبناء إسماعيل، حتى ظهرت في القيادة والشرف من قبائلهم قريش.. فماذا يعني هذا.. والقرآن باق بكماله، وخلوده، وجدته، يسابق العصر، ويعلم المسلمين، ويجدد أصالتهم وهو يعرف ألسنتهم، وينبههم من الغفلة، ويحذرهم من المروق..

نعم مرة أخرى ماذا يعني هذا .. بعد أن اكتشف الإنسان الحديث قوة البخار، وصنع السيارة والقطار، واختراع الطائرة ومركبات الفضاء؟!

هل يعني هذا أن نسترجع الإبل لنجعل منها ركوبنا وأسفارنا تيمنًا بحياة أوائلنا.. وأن نرفع من جديد أعمدة بيوت الشعر لنأوي إليها.. أم يعني أن نستبقى – مع تطور الحياة – ما استخلصناه من حياة أسلافنا من سنة السير في الأرض، غير محجوبين عما حولنا من بدائع خلق الله، ولا مقصرين عن التفكير في آياته، ونحن نستقبل في التطلع إليها موجبات

التسبيح والحمد لله، مستعيدين صحبة القمر والنجوم، وانشراح الصدر بلثمات النور والنسيم..

ولئن كان من الحق في كتاب الله أيضًا أن العرب في حياة أممهم الأولى كانوا يسيرون سيرهم المتفكر في آيات الله قبل عصر الإبل، وإذن فمن الحق أيضًا أن يحافظوا على سنة هذا السير بين آيات الله، للتفكر في خلق السموات والأرض، ولتجديد الميثاق مع الله على الإيمان والطاعة – بعد عصر الإبل، وذلك حتى تبقى قدرتهم متجددة – في سبيل حفاظهم على أصالتهم – على هدم أية جدران أو شواغل تحجبهم عن ربهم وآياته، وعن الخلق ومشاهده، وعن العلم ومصادره..

وإنه لمن العجب وموجبات الأسى ألا يتعظ العرب اليوم بما صار إليه أكثر المتقدمين تقدمًا في هذا العصر في الولايات المتحدة، ممن سحقتهم الحياة الآلية داخل ناطحات السحاب، وفي بطون الشوارع السحيقة والمدوية للمدن، وهم بين الالتصاق القاتل بمحركات السيارات والطائرات، أو الضياع الممزق في دوامات ضجيج المصانع والآلات، أو الموت الاختياري في أقبية نوادي الليل، أو الموت القسري في أعماق مناجم الفحم.. هؤلاء الذين عندما انسلخوا عن آدميتهم داخل مذيبات الآدمية في المدن الحديثة. أصابهم الانهيار الحضاري، وسقطوا في قبضة العقد والأمراض النفسية المتعددة. التي قذفت بهم يميناً ويسارًا إلى العنف، والخمر، والجنس.. هذا بينما خرج بعض منهم ممن أدركوا مصدر العلة في انهيارهم فأنشأوا جماعات الـ Camping التي تدعو في محاولة أخيرة للإنقاذ إلى حياة المعسكرات والعيش في الخيام، وسط الطبيعة الحرة، والشمس الساطعة، والرياح الطليقة، والأشجار .. والوعول .. والعصافير .. لكي

يستعيدوا إن استطاعوا – برغم جراح أنفسهم ورواسب فلسفاتهم وشهواتهم – بعض ما فقدوه من صورة الإنسان، وأمن النفس، وراحة الحواس..

وأخيرًا نقول: ماذا في القرآن الكريم في تكريم حياة العرب فوق الأنعام، والسير المتفكر بها الأرض، من هذه الدعوة المحببة لكل مؤمن لكي لا يحتجب عن آيات الله، ولا ينقبر وراء الجدران جامدًا في أغلاله عن السير في الأرض وغافلا عن التفكر في خلق الله وآياته، بالقلب السليم الكبير، والعقل المؤمن المستنير.

البداء والأنعام:

اتجه القرآن الكريم إلى تذكير قوم النبي بآيات الله ونعمه، التي جعل منها الطريق المضيء أمامهم للاستدلال عليه، ولأفراده بالعبادة، هذه الآيات التي لم تتكامل في أي مكان لغيرهم، في بداء جدب حصين عزيز مثل بدائهم، وفي قطاع مضيء من الأرض والسماء، في قلب العلم، كهذا القطاع المتكامل بضوئه ونوره، وفي سمائه وأرضه، كما هو الأمر إلى اليوم فوق جزيرتهم..

لقد ذكرهم الله تعالى بنعمة الرحلة الدائمة في حياتهم – بين فترات الإقامة الموقوتة .. وذلك حيث أقام حياتهم الغنية بآلاء الله، ومشقة السعي، على كل من الرعى والتجارة، وهو في هذا التذكير الذي يجعله آية لهم من أعظم آياته – أمام دهشة المتحضرين المستقرين بالقمر أو المحجوبين بالترف – يقول سبحانه عن خيامهم، أو بيوت الشعر التي لا يأوون في أفضل حياتهم وأعزها إلى غيرها، حين يرحلون في حياة عسكرتهم الدائمة، وجهادهم الموصول: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ

سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل: 80] .

إن هذه البيوت أو الخيام من جلود الإبل هي واحدة من نعم الله التي أنعم بها عليهم، ألوفًا من السنين من فجر التاريخ، حين كتبها عليهم ليعيشوا آمنين، خفافًا من الأثقال في بدائهم الجدب المضيء، والموحش الحصين، وهم يخرجون بها في الربيع يظعنون ويقيمون وراء المرعى..

والخيار الثاني فريضة الحركة – داخل واقع الجزيرة العربية المتحرك – هو ما كتبه الله لهم أيضًا، من هذه الرحلات بالشتاء والصيف حيث يستخفون هذه البيوت أو الخيام نفسها في قوافلهم للتجارة العالمية فيما بين الشام واليمن، وما بين اليمن باتجاه موانئ الهند، بعد أن ملكوا هذه التجارة بفضل حريتهم، وما اشتهروا به بين الشعوب المحيطة بهم بالصدق والأمانة..

ولقد ذكر الله في كتابه قريشًا بمثل هذه النعمة في قوله تعالى :

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ [سورة قريش]

ولقد ذكرهم الله أيضًا على الطريق المفتوح لهذا البرهان المضيء بحقيقة أحدية الله وآلائه ووجوب طاعته، اعتزازًا على غيره به، ذكرهم بهذه الإبل القومية الشامخة التي جعلها عمود حياتهم، وقوة حركتهم، وأفضل رزق خصهم بهم عضوًا طويلة، وقد سماها لذلك "الأنعام" للدلالة على جملة النعم فيها، وكمال الرزق بها، وتعدد المنافع المتسعة المدى على ظهورها في الظعن والإقامة وفي السلم والحرب، وحيث لم تكن لتهون مشقات الحياة عليهم، وتدنو خيرات الأرض لهم، في بداء قفر، وماء قليل،

ورحلة متصلة، وتيه متوقع، بأية وسيلة أخرى غير هذه "الأنعام" الصابرة الذكية، والشريفة القوية. وهي التي تكاد من وفائها وولائها لصاحبها أن تنطق باسمه، وهي تعرفه بشخصه، وتحن له عند قدومه في حين تشاركه كل ما ينوء به، وتحمل عنه أكثر الذى لا يطيقه، حتى لقد تعددت أسماء هذه الإبل ذكورًا وإناثًا وهي لا تزال من آيات الله الماثله للعيان، للدلالة على خير الصفات المقترنة بإنسانية الإنسان حين تشرق مقاصده.

إن هذه الإبل الذكية ببصيرتها، والسخية بعطائها، هي التي اصطحبها وصادقها وتعلق بها الإنسان العربي، وهو يجدها فوق أي دابة أليفة عرفها الإنسان آية الله له، ونعمته عليه، إذ هي التي تصدق في صحبته، وتصبر على حمل أثقاله، وتهديه ببصيرتها إلى جادة الطريق حتى لا يذهب به التيه، وإلى منابع الماء البعيد حتى لا يهلكه الظمأ. ومن ذلك فقد سماها العرب الأولون "الزاملة" ومعناها الراحلة التي يبدو من شدة نشاطها في السير بأثقالها كأنها تظلع، ومعناها أيضًا "الزميل" والصاحب الوفي، ورفيق الطريق الباذل كل نشاطه، وما في ضروعه، بل وحياته، في سبيل صاحبه، بغير امتنان عليه في سراء الحياة وضرائها. ولا يزال البدو في سيناء وغيرها يسمون الجمل والناقة "الزمالة" إلى اليوم من هذا المعنى القديم نفسه.

عن هذه النعمة بهذه الأنعام يقول الله محدثًا قوم النبي في كتابه الكريم:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾[غافر: 79-81]

ولننظـــر إلى قولـــه تعـــالى : ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وما فيها من الإشارة المبينة إلى آيات الله في نعمه الكثيرة بهذه الأنعام، ومن أعظمها هذه الآيات الكبرى كما يتاح لهم فوق ظهورها بالنهار والليل أن يشهدوها في واقعهم المتحرك، والمنتظم، داخل ملكوت السموات والأرض، فتتحقق لهم معاينة هذا البرهان الحسي والعلمي على قيومية الله وأحديته، وعلى واسع رحمته وبديع خلقه، وعلى وافر نعمه ووجوب طاعته.

ومن تأكيد الله على نعمته على هؤلاء العرب البلداة بهذه الأنعام يقول تعالى أيضًا وهو يساويها بأبنائهم: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ﴾[الشعراء:132- 133]

ثم يقول سبحانه وهو يشير مرة أخرى إلى أنها من آيات الله عند ذوي العقول، هذه الآيات التي عن طريقها يظهر لهم البرهان على الله حيًا وجليًا ومتصلاً:

﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٤]

ويقول سبحانه أيضًا في ملاحقة التذكير بهذه الآيات والنعم المتصلة بالسير في الأرض، والتحقق من البرهان عليه:

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:5- 7]

من أجل هذا اوجب الله عليها منذ أقام إبراهيم وإسماعيل بيت الله في مكة فريضة شكره في مقاصد الحج إلى هذا البيت على ما رزقهم من هذه النعمة الكبرى، والآية المتعددة الآيات في هذه الأنعام، وذلك حيث يقول تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [الحج:28] .

الآيات والبرهان:

واستنادًا إلى هذا الوضوح لآيات الله أمام سمع وبصر هذا الراحل المجد، على ظهر جملة الذكي القوي والصبور. كان هذا التذكير الدائب في كتاب الله لمن غفلوا عن آياته القريبة إليهم، والناطقة لهم، والشاهدة عليهم، حتى بتذكروا بعد غفلاتهم، وليرجعوا إليه بعد فتنتهم بأموالهم وأبنائهم . وهكذا كان الأمر حين بلغ القرآن الكريم مبلغه من هذا التذكير الصادع لشركهم، والموقظ لفطرتهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا، وهم يتذاكرون ما يرونه من آيات الله المشرقة حولهم فلا ينكرونها، بل يقولون في صدق تفكرهم في خلق السموات والأرض على ما ألقوا، وألف أسلافهم:﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: 191]

والآن – في مزيد من الإيضاح – تسأل عن طبيعة وخصائص هذا البرهان العلمي والمحس. الذي يرتكز عليه يقين المؤمن بصدق إيمانه.. إننا نسأل فنقول:

1- هل هذا البرهان العلمي والحسي شرط نجده في القرآن الكريم لصحة وسلامة إيمان المؤمن الصادق ، ولثبات يقينه بالله الحق؟

2- ثم ما هي طبيعة وخصائص هذا البرهان كما يمكن أن نتعرف عليها من آيات الله، وحتى يمكن بجلائها أن يزداد اهتمام المؤمنين المعاصرين باستجلاء هذا البرهان، تقوية لإيمانهم، وتزكية ليقينهم، وتقويماً لأقوالهم وأعمالهم ومقاصدهم.

البرهان حجة:

إذا كان البرهان على صحة أمر ما هو الحجة الملزمة بكل ما يقتضيه هذا الأمر من سلوك وعمل، فإنه من المسلمات أن يسبق الإلزام بكل حقائق الدين، وفرائضه ، وأخلاقه، وغاياته ، جلاء هذا البرهان على أن الله سبحانه وهو مصدر هذا الدين الحق، هو حق لا ريب فيه. وهذا البرهان أو الحجة الملزمة يكون صدوره لازمًا من جانبين:

الأول – من جانب الله تعالى الذي يقدم إلى رسله، وإلى من اختارهم بلسانهم لدعوتهم إلى طاعته، وإلى الحياة بشريعته – برهانه إليهم على صحة ما يدعوهم إليه، وهو بهذا البرهان يلزمهم بحجته لهم، أو عليهم، إذا آمنوا أو لم يؤمنوا بهذا البرهان.

ولقد كان هذا البرهان المنير من الله إلى قوم النبي، ومن حولهم، هو آيته الكبرى هذا القرآن الحكيم، وذلك حيث يقول تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: 174]

الآخر: من جانب أولئك الذين يزعمون في غفلاتهم، مع ما آتاهم الله من النعم التي أشرنا إليها ليبصروا آياته، وليتحققوا من البرهان على أحديته – أن معه شركاء لا يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى!

وفي مواجهة هؤلاء الغافلين، أو المعاندين، أو اللاهين بالترف والمتاع، يسألهم الله عن هذا "البرهان" على ما يشركون به، وما يلجأون

إليه من تكذيب رسوله إن كانوا صادقين، مما يؤكد أن "ألبرهان" على كل دعوة لازم لقيام الحجة على صحتها، وذلك حيث يقول تعالى لمعاندي قريش: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]

أما البرهان على الله من جانب المؤمنين فقد كان الرسل أسوتهم في استجلائه، ونذكر هنا في أسوتنا برسول الله، وبإبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، كيف أقاما على هذا البرهان يقينهم بالله الواحد الأحد، الذي آمنوا به – قبل أن يدعوا إليه – حنفاء غير مشركين، وإلا فكيف كانوا يصدقون بعد بعثتهم بما لم يكونوا على يقين به أعظم اليقين قبل هذه البعثة؟

أما عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا البرهان المشرق، واليقين المستقر، فلقد بلغ إليه على نفس طريق أبيه إبراهيم، وهو يسير في شبابه قبل الدعوة في تجارة عمه أبي طالب، ثم في تجارة زوجة السيدة خديجة رضي الله عنها، في قوافل قريش إلى الشام، وحيث في الظعن والإقامة مع الإبل المحملة بالتجارة، والعائدة بمثلها، كان يتاح لرسول الله أن يشهد مع رفاق رحلته آيات الله في السماء والأرض، وفي الليل والنهار، فيتفكر، ويستجلي، ويدرك الاتساق، ويشهد البرهان.

كذلك فقد عاود صلى الله عليه وسلم هذا التفكير في خلق السموات والأرض، وليكون من الموقنين، عندما قضى سنوات الأهبة قبل البعثة وهو يتحنث في غار حراء، متهللاً بذكر الله للبعيد والقريب مما يراه من آيات الله، حتى نزل عليه الوحي، وناداه الله به ليحمل الأمانة، أمانة خاتم النبيين، بهذا القرآن الكريم، والنور العظيم، الذي سيبقى في

الأرض برهانًا لا تنطفئ منارته، ولا تذهب جدته، على أن الله حق، وكتابه إلى الناس حق ودعوته إلى الإسلام إليه حق، ووعده للمؤمنين الصادقين حق.

وأما عن طريق إبراهيم عليه السلام إلى هذا البرهان المنير على الله الحق، والذي مال به في حنيفيته العلمية والسمحة عن كل ميل عن الله، فقد تناوله القرآن الكريم ببعض التفصيل في أكثر من موقف، وهو يقدم هذا المنهج اليقيني في نهايته بشارة لمنهج الإسلام العلمي واليقيني في النظر والاستدلال.

البرهان عام للجميع:

واستطلاعًا لطبيعة وخصائص هذا البرهان الجلي على الله، من بين كل مصادرنا، وسير أنبيائنا، وحياة ما سبق من صالح مجتمعاتنا، نجد أن الصفة الأولى لهذا البرهان، أنه في طبيعة السير والتفكر في آيات الله في السموات والأرض، وكما تحدد ذلك في بيان القرآن الكريم – هي أنه برهان عام، أي أنه برهان متاح لجميع من وهبهم الله هذه النعمة – إذا لم يغلفوا أو يطغوا بالترف.

إن هذا البرهان المضيء، والدائم في مواقعه، متاح للأغنياء والفقراء ، ومتاح لم يقرءون ويكتبون، ولمن لا يقرءون ولا يكتبون، وبهذه السواسية في الحق، والالتزام بمعرفة هذا البرهان الحي، بعد تقليب السمع والبصر، وتوجيه القلب والعقل، في تتبع وتدبر هذه الآيات المفضية إليه، والشاهدة به، والناطقة عنه. إنه بهذه السواسية في حق الاستدلال على الله بأشرف العلوم، وأعظم البراهين، يتجلى أيضًا في هذا الركن الأساسي من أركان الدين، عدل الله.. وفضله .. ورحمته..

إن هـذا البرهـان العـام علـى الله، وهـو الركيـزة للـدين الحـق، وللمنهج العلمي لهذا الدين في الحياة، يشهد بهذا الفارق الكبير، بل بهذا التعـارض الأبـدي بـين الـدين الحـق وبـين جميـع "الفلسـفات" الـتي تـزعم بتمويهات أصحابها أنها تقيم "المجتمعات الفاضلة" على أساس من "علومها السرية " التي قصرتها على الفلاسفة من كهنة هذه العلوم، وسخرتها فقط لتثبيت سلطان الملوك، وتكريس عبودية ومهانة العبيد لهؤلاء الملوك، وللكهنة الفلاسفة، وللتجار الأغنياء وأشباههم..

إن هـذه السواسية في الفرصة المتاحة لاستطلاع هـذا البرهـان المضيء على الله تؤكد أيضًا صدق ما جاء به الدين الحق في شرائعه في أن لكل إنسان بحسب عمله، وأن لكل محتاج فيما دون الكفاية بحسب حاجته، وفي أنه لا طبقة ، ولا استغلال ، ولا بخس للحقوق، ولا كنز للأموال، ولا عدوان على الحريات والحرمات، ولا تفريط في طهارة الجسم والنفس، والقول والعمل والفكر والشعور..

إن أفلاطون الذي لا يزال شيئاً مذكورًا عند بعض موالي الثقافة الأوربية كان يتكلم عن مدينته الفاضلة المزعومة باسم مصالح وأهواء "الارستقراطية الأثينية" أي "الصفوة" التي فرضت نفسها من التجار والمحاربين والفلاسفة. وكان هو يرى أن يكون كل شيء "مشاعًا" في مدينته – بمفهوم المزدكية الفارسية السابقة له – يتفضل بالضرورة باحتقار العمل اليدوي، ويدعو إلى حرمان أهل الحرف من الحقوق السياسية، مع إصراره على أن يبقى العبء الأكبر في خدمة سادة هذه المدينة الخرافية من الملوك والتجار والفلاسفة، ملقى على العبيد والأسرى المحرومين من كل حقوق.

وأما أرسطو، الأعظم عندهم، فكان على فلسفته المستقرة على ذات الركائز الأرستقراطية اليونانية، وراء الشعار الزائف للديمقراطية، أطول باعًا في متاهاته التجريدية الوهمية، وفي احتقاره أيضًا للعمل اليدوي الذي يرى حرمان العمال بسببه من حقوق المواطن، وذلك حيث كان يرى وهو المخدوم بالأسرى والعبيد، والمتفرغ من العمل ليستمتع بأوهام الكلام عن الديمقراطية والمثالية والمادية، كان يرى أن "العمل في المهن الوضيعة" بسبب الدمار للعمال ومديري العمل على السواء، لأن العمل يدفعهم للعزلة في بيوتهم، وإلى قضاء أوقات راحتهم بجوار المدافئ، وليس عند الأكروبول للجدل الفارغ مثل السادة الأثينيين المتفرغين لشرب الخمر والحوار – وبذلك فإن هؤلاء العمال يصبحون في المجتمع من "أهل السوء" الذين لا يهتمون بالدفاع عن بلادهم!!.. وكأن الأشراف والسادة من التجار والفلاسفة هم الذين يقاتلون عن بلادهم .. وليس الأسرى أيضًا والعبيد!!

وهو برهان علمي:

وننتقل إلى الصفة الثالثة من صفات هذا البرهان على الله.. بعد أن حجة وأنه للجميع – وهي أنه برهان علمي، ليس بالنظر الضيق لكلمة "علمي" بالمفهوم المعاصر، أي أنه يستند إلى " نظرية علمية" كيفما كان المصدر الذي ترجع إليه، وإنما المقصود بكلمة "علمي" في طبيعة هذا البرهان هو استيعابه منهج القرآن الكريم في تأكيد الحقيقتين الآتيتين، اللتين لا تتناقضان مع العلم، بل تعززان منهج العلم، ليكون هذا التأكيد قرارًا وأمنًا وتنمية لحياة المؤمنين:

الحقيقة الأولى – هي أن هذا الخلق المتسق، وغير المختل في أي جانب من جوانبه، والدائب الانتظام مع تعاقب مداراته، وسرعة حركته،

وتعدد اتجاهاته، لا يمكن أن يكون في نظر المشاهد البصير، المتتبع لحركة هذا الخلق المتسق، إلا من صنع وتدبير خالق قدير حكيم.

ويقدم القرآن الكريم هذا الدليل العلمي على هذه الحقيقة لمن يخاطبهم بين آياته الجلية لهم، والمتحركة باتساقها حولهم وأمامهم، بما هو غير متاح لنظر وتدبر غيرهم، في أراضي الجليد والغابات، فهو يقول سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك: 1- 4].

واضح في سياق هذه الآيات الكريمة أن معنى قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ هو أنك أيها المشاهد المتفكر في آيات خلق الله والمتتبع لحركاتها وأنت تسير في أفضل الظروف للتفكر فيها، لا تجد أثرًا لأي اختلال فيما تراه من حركة هذه الآيات وتعاقبها، بل تجد هذا الاتساق والانتظام فيما بينها وأنفسها، وفيما بينها وبين الإنسان المشاهد لها، هذا "الاتساق" الذي عبر عنه القرآن بأنه "التنزه" عن التفاوت، والذي هو بأي مقياس علمي الدليل القاطع على سلامة هذا الخلق من أي "فطور" أي من أي فجوة أو اختلال، أو صدع، فمهما أرجعت البصر هنا وهناك بحثًا عن هذه الصدوع أو الفجوات، فلن تجد إلا هذا "الاتساق" الباهر، والبرهان الظاهر، الدال على أن لهذا الخلق خالقًا قادرًا حكيمًا، خلقه بسلطانه، ودبره بأمره، وقام عليه بحكمته وأمره.

الحقيقة الثانية – والمتممة لهذه الحقيقة الأولى هي أن هذا الخالق المدبر، والقائم على أمر هذا الخلق المتسق، ما نراه منه وما لا نراه، إنما

هو خالق واحد أحد ، لا شريك له، ولا شبيه به. ويقدم القرآن الكريم دليله على هذه الحقيقة – بمنهجه العلمي التجريبي الذي أشرقت به الحضارة العربية الإسلامية، يقدمه بإيضاح ما لا قدرة لعاقل على تكذيبه، وهو أن شرط الاتساق الذي سلمنا به في الحقيقة الأولى، والذي تحققنا به من شرط وجود الخالق المدبر لهذا الخلق المتسق- يفرض علينا أن ننفي وجود أي تنازع بين آلهة كثيرين، وخالقين متنازعين، على هذا الكون الواحد، وذلك حتى يبقى هذا الخلق متسقًا بغير تفاوت. وبغير اختلال أو فطور، كما يدل برهان المشاهدة..

وفي هذا الدليل الواضح وضوح الحق على أن الله واحد، وليس جملة آلهة، وأن الكون الذي يدبر أمره واحد وليس جملة أكوان، يقول الله سبحانه وتعالى لمن أسلموا بعقولهم وفطرتهم إليه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]

أي كيف يدبر أمر السموات والأرض آلهة غير الله، أو مع الله، ثم يتسقان في حركتهما ولا يتعرضان للفساد والخلل؟

ويزيد سبحانه من هذا الدليل بيانًا ووضوحًا فيقول في آية أخرى قاطعة بالقول الفصل بهذه الحقيقة اليقينية العلمية: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: 91]

أليس مثل هذا – مع الفارق – مما يحدث بين ملوك الأرض وزعمائها، وهم يتغالبون على السلطة، فيعلو بعضهم على بعض، ويختل أمر المجتمعات والأمم، ويفشوا الظلم، ويضيع العدل، حتى يعود الأمر بيد

حـاكم عـادل إلى الله، ليعـود الاتسـاق بوحـدة الإرادة، وسـلامة التـدبير، وشرف القصد، إلى كل شيء في حياة الناس، ومصادر أعمالهم، وأسباب عمرانهم ومصلحتهم؟

فكيف يكون مع الله آلهة يفسد هذا الكون الكبير بتنازعهم، ويختل هذا الاتساق الباهر الذي يسوده، والذي لا يزال يقدم برهانه المضيء لمن يسير في الأرض فيرى ويسمع، ويتفكر ويتدبر، على أن الله الحق، الموحي بالدين الحق، هو إله واحد قادر، رحمن رحيم. لا شريك له في الملك والأمر، وهو العزيز الحكيم.

الفصل الثالث

من إسماعيل إلى عصر النبوة

كان العرب يحبون الله ويضرعون إليه

من عهد إبراهيم:

على الأقل في هذه الحقبة التاريخية القريبة بمصادرها إلينا، منذ أقام إبراهيم وإسماعيل بيت الله في مكة، أي منذ نحو 4000 سنة من تاريخ العرب الديني، فإننا نستطيع أن نقدم الشواهد على أن هؤلاء العرب من أبناء إسماعيل، والذين لم ينقطعوا عن حج البيت حتى ظهور وانتصار دعوة الإسلام، كانوا وهم على بقية تزيد وتنقص، وتعتدل وتميل، من دين إبراهيم وحنيفيته، يعرفون الله العزيز العليم، والرحمن الرحيم، بأسمائه الحسنى، وكانوا وهم يحجون إلى بيته يتضرعون إليه باسمه، ويتقربون في الطواف بكعبته بتجديد مواثيق طاعته. ولم يحدث قط برغم الشرك الذي طرأ عليهم قبيل بعثة النبي بأصنام مستوردة من الشام وبلاد اليونان أن سموا بيت الله باسم أحد أصنامهم، أو باسم أحد أرواح الطبيعة التي عبدتها الشعوب المجاورة التي لم ترتق بتأثراتها الهندية إلى مستوى معرفة الله الحق، باسمه الحق، في الدين الحق، فعبدت برهمن، وأهورا مزدا، وزيوس، وغيرها كما كان الأمر شائعاً في الهند وفارس واليونان وغيرها في أوربا وآسية وأفريقية من عبادة أرواح الطبيعة.

وهذه الشواهد التي سنقدمها من مصادرها الحاضرة بأيدينا عن أن الله الذي استدل العرب عليه في سيرهم بين الآفاق، وتفكرهم في الآيات، هو المعبود الحق الذي أحبوه، وآمنوا بقدرته وحكمته ورحمته، ولجأوا في كل شدائدهم إليه، وصلوا وصاموا وتصدقوا وحجوا إلى بيته من فرائض طاعته كما توارثوا ذلك عن أبويهم إبراهيم وإسماعيل، وأنهم آمنوا بالبعث والحساب عدا قلة من المارقين المخلوعين عن جماعتهم لا يحسب لها حساب...

ومثل هذه الشواهد الغزيرة المنابع في التاريخ الديني، وبشهادة القرآن الكريم، هي الوجه الحقيقي لعقيدة العرب الدينية المستقرة على جذورها من أصالة الإسلام في هذا التاريخ، ومن الاخضرار الدائم لشجرة الإيمان بالله الحق في حياة هذه الأمة العربية، على الرغم من فترات الغفلة بالشرك الذي كان يشوب وجه هذا الإيمان عند القلة، ولا يقطع جذوره بين الكثرة، مما يوجب تنقية هذا التاريخ الديني مما تعرض له بأيدي أعداء العرب وأعداء الإسلام من وصم العرب بكل قبيح من الأخلاق، التي هي أخلاق هذه الشعوبية الحاقدة طوال عصورها، واعتبار أن الشرك ومعاداة الله أو الجهل به هي الأصل في حياة العرب، في حين أن الإيمان بالله، وحب الله، واللجوء الضارع في الشدة إلى الله، والتقرب إلى الله بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هي مقومات حياتهم منذ فجر التاريخ، والوجه الحقيقي لحياتهم كما تؤكد الشواهد الكثيرة، الناطقة بهذا الحق في مصادرها، والتي تزخر بها آيات الله وسيرة الرسول، والتي نقدم بعضاً مما تزخر به مكتبة التراث العربي فيما يلي..

الله بأسمائه الحسنى:

يقول زيد بن عمرو بن نفيل – قبيل البعثة – وهو يستعيذ برب إبراهيم مما ظهر من شرك بعض المشركين:

عذت بمن عَاذَ به إبراهِمْ مستقبلَ الكعبة وهْوَ قائِمْ

ويقول أمية بن أبي الصلت يذكر سلطان الله على كل الكائنات:

إلَـــاهُ العـــالمين وكـــلِّ أرْضٍ وربُّ الراسيات مـن الجبالِ

ويقول امرؤ القيس يذكر الله بأحد أسمائه الحسنى، ويحمده على إنزال الغيث وإحياء الجبد:

تلك السحابُ إذا الرحمنُ أرسلها روَّى بها من مُحول الأرضِ أيباسا

ويقول لبيد أحد شعراء المعلقات أيضاً وهو ينكر أن أحداً غير الله يعلم الغيب:

لعَمْرُكَ ما تدري الضواربُ بالحَصَى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ويقول عنترة وهو يؤمن بأن كل أمر هو بقضاء الله وقدره:

وإذا كان أمرُ اللهِ أمراً يُقدَّرُ فكيف يفرُّ المرءُ منهُ ويحَذرُ

ويقول حاتم الطائي وهو يقسم بالله رب البعث والنشور ومن لا تخفى عليه خافية:

أمَا والذي لا يعَلمُ السرَّ غيرُه ويُحْيي العِظَامَ البيضَ وهي رَميمُ

ويقول عامر بن الطفيل في التسليم بقضاء الله، وأن في بعض ما يكرهه الإنسان خيراً له:

قضى اللهُ في بعْضِ المكارهِ لِلْفَتى برُشْد وفي بعضِ الهُدَى ما يحاذِرُ

ويقول سويد بن أبي كاهل اليشكري يحمد الله على ما أنشأ عليه قومه من مكارم الأخلاق، والصبر، والبعد عن الدنايا، وإباء الضيم من الأقوياء:

كَتب الرحمنُ والحمدُ لهُ سَعة الأخلاقِ فينا والضَّلَعْ

وإباءٌ للدّنيَّات إذا أُعْطِيَ الْمكثُورُ ضَيْما فكَنَعْ

وبناءُ لِلْمَعَالي إنَّما يرفعُ اللهُ ومن شاءَ وَضَعْ

نِعَمٌ الله فينا رَبُّها وصنيعُ الله والله صَنَعْ

وفي بيت واحد من الشعر يجمع رجل حكيم هو الحارث بن عباد من شيوخ وحكماء العرب هذه الحقيقة الدينية الكبيرة، والتي أضاء بها

القرآن وهو يرددها في آياته، جامعاً بها الدين كله في «الإيمان والعمل الصالح» الذي لا يبقى من دنيا الإنسان وسعيه المنجي بها غيرهما.. يقول الحارث بن عباد عابراً بحكمته محنة حرب البسوس قبل البعثة، ومذكراً قومه بهذه الحقيقة الجامعة التي لا شك في أنها من ذخائر تراثهم، ومن مقومات أصالتهم حتى لا ينسيهم الغضب والثارات أن يرجعوا إليها، فيرجعوا إلى الله وإلى ما يليق بالمؤمنين به من صالح العمل.. وهي قصيدة طويلة من جوامع الحكمة يبدؤها بهذا البيت:

كُلُّ شَيْءٍ مَصيرُهُ لِلزَّوالِ غَيْرَ رَبِّي وَصَالحِ الأَعْمَالِ

نثر الحكمة والوصايا:

هذا من حكمة الشعر الذي اشتهر به بيان العرب.. وأما في الحكمة والوصايا الداعية إلى تذكر مكارم الأخلاق، وإلى الاعتصام بالحق، والألفة به، وإلى قمع الباغي، ونصرة الضعيف، فنذكر من مشهورها في اقوال حكماء الرجال والنساء من أبناء هذه الأمة العربية الأمينة باجتباء الله واصطفائه على رسالة الدين الحق، ومكارم الأخلاق بين أجيالها، وبين من يتعرب لهذا الدين والأخلاق بين البشر:

يقول أكثم بن صيفي من كلام لا يزال له وهج الشمس، وخفق النجوم ونضارة الحق:

«الصدق منجاة، والكذب مهواة، والباطل لجاجة.. الحزم مركب صعب، والعجز مركب وطئ.. آفة الرأي الهوى.. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي.. لا جماعة لمن اختلف.. ألزموا النساء المهابة.. أخوك من صدقك.. خير السخاء ما وافق الحاجة، وخير العفو ما كان بعد القدرة..».

ومن أقوال الحكمة في المأثور من أقوال النساء العربيات، الكاملات والمتكاملات مع الرجال في حمل الأمانة أمام الله، وفي نصرة الحق، وإصلاح العمل، وإباء الضيم، نذكر من حديث(*) السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى زوجها الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، عندما وجد شدة الوحي في أول نزوله عليه بغار حراء.. قولها له:

«أبشر يا ابن العم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً».

فهذه سيدة من أشراف قريش، تعمل بالتجارة، ولكنها بجوار بيت الله وكانت تنتظر مع قومها من أبناء إسماعيل رسولاً من الله إليهم، فهذا هو وعد الله إلى أبيهم إبراهيم كما تناقلوه أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، ولننظر بالإكبار لها إلى نبع الحكمة والصدق والتفاؤل في تثبيتها للرسول، وفي تبشيره بالرسالة، وفي هذا القسم بالله، البالغ في حديثها ذروة الإيمان به ساعة شروق الدعوة حيث تقول: «والذي نفسي بيده».

وينقلنا هذا المثال من القسم بالله في حديث السيدة خديجة إلى ذكر ما كان سائداً في بلاغة العرب قبيل البعثة، ومع صدق إيمانهم بالله على علم وبرهان، من صيغ هذا القسم الذي نزل ببعضه وحي الله بعد ذلك في آيات القرآن الكريم.

لقد كان هؤلاء العرب المؤمنون بالله يقسمون به على قدر إيمانهم به، ومع اتساع المدى أمامهم لشهود البرهان عليه.. فهم يقسمون بآياته الدالة عليه فيقولون:

«والذي سمك السماء دحى الأرض».

(*) هذه المأثورات من كتاب «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب» للمؤلف – دار الجيل.

«لا ورافعها بغير عمد».. أي السماء.

«لا ورب الشمس والقمر»

«لا ومجري الرياح، ومنشيء السحاب، ومنزل القطر»

«لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة».

«لا ورازق الأنام»

«لا ورب الحل والحرام»

«لا والذي يواريني منه غيب».

كل هذا وغيره مما أقسموا به بالله الحق من آياته مثل: الليل الغاسق، والسماء والطارق، والمزن الوادق، يشهد بأن الرسالة بالقرآن والإسلام نزلت من الله لمن أعدهم واجتباهم لها، برغم غفلاتهم بالشرك، وتكذيب القلة منهم للرسول، وإلا فكيف كان يمكن للعرب أن يجمعوا على إيمانهم الصادق بهذا الدين، بعد فترة المعاندة القصيرة من القلة، فيدخلوا في دين الله أفواجاً، ثم يخرجوا تحت رايات القرآن وشمس الإسلام فيحرروا بقية الشعوب العربية في وطنهم، ملوحين بهذه الرايات، ومضيئين بهذه الشمس على من حولهم من البشر.. كيف كان يتيسر لهم ذلك بآية الله الكبرى به في تاريخ العالم وليس فقط في تاريخ العرب، لو لم يكن الله قد أعدهم واجتباهم لهذا الدين، بأنعمه عليهم من الحرية، ومن السير في الأرض والبداء على ظهور الأنعام ليشهدوا مع سعيهم وراء الغيث والمرعى، أو على طرق التجارة العالمية، برهانهم المشرق على الله، في كل اتجاه يتجهون إليه عبر الحركة الدائبة، ونعمة اللغة والعقل والحياة..

في أحد هذه الشواهد على هذه الحقيقة في القرآن الكريم وهي حب العرب لله الذي أيقنوا به بالبرهان عليه يقول تعالى فيهم على لسان رسوله:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: 31]

ويقول تعالى في أن هذا الدين ميسر لهم بنعم الله فيهم، وبما اجتباهم إليه على ملة أبيهم إبراهيم: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ [الحج: 78]

ويقول في دعائهم له: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: 65]

البيئة والأخلاق:

وننتقل من مجال المأثورات إلى هذا العصر الحديث لنؤكد أن هذا الفهم السليم لأثر البيئة والمناخ – وهما من آيات الله – على واقع العرب قبل الإسلام، لا يزال برغم هجمات الجاهلين أو المضللين من أعدائهم مشعاً من بعض كتب المؤرخين العرب المعاصرين، الذين ارتفعوا بأمانة العلم، ونعمة العقل، وسعة الاطلاع فوق غبار ورياح التشكيك في حكمة الله في اختيار من اختارهم لهذا الدين بحقه، وبقدرات تدبره، وبالصبر على أعباء حمل أمانته، وصدق الجهاد في العمل به والدعوة إليه.

من هؤلاء نذكر المؤرخ العالم محمد فريد أبو حديد الذي ننقل من كتابه «أمتنا العربية» هذه الفقرات المترابطة في مقدماتها ونتائجها لتأكيد وجهة النظر الصحيحة إلى حياة العرب قبل الإسلام بما يتفق وما انتهت إليه منابع وأنهار وظواهر هذه الحياة من هذا النصر العظيم، والباقي والمتجدد للدين الحق، وبما يؤكد في حكمة الله ودوام سننه أن هذه المقومات والركائز التي قام عليها هذا الدين في أقرب الناس له، وتحقق

بها هذا النصر في صدق سعيهم إليه، هي نفس المقومات والركائز التي يقوم عليها مرة أخرى في حياة المسلمين المعاصرين، على أرض العرب، وحول أرض العرب، بقدر صحة استخلاصها من مصادرها، وصدق الجهاد في استعادتها، والتقبل لها، والتوحد حولها، كما نحاول تفصيل الحيوي من ذلك ونقدم البرهان العلمي والتاريخي عليه في فصول هذا الكتاب.

يقول المؤرخ المصري محمد فريد أبو حديد في كتابه الفريد «أمتنا العربية»[*]: «وأول ما يسترعي النظر في حياة العرب في حصنهم العظيم بالجزيرة العربية قيام نظامهم الاجتماعي على الرباط القبلي، فولاء الفرد لا يكون إلا لقبيلته، وولاؤه لها لا يقف عند حد... وإذا كان العربي يحمل هذا الولاء لقبيلته فإن قبيلته كذلك تحمل له ولاء مماثلاً، فهي المسئولة عن سلامته، وهي التي تحميه من كل اعتداء».

ثم يقول:

«وكان للفرد في القبيلة أن يجبر من ينزل بجواره، ويكون من واجب القبيلة أن تحمي ذلك الجار من كل اعتداء ما دام مقيماً بها، فإذا تبين لها أنه غير جدير بحمايتها أنذرته بأنها تريد أن تتخلى عن جواره، وتطلب منه أن ينزح عنها، ولكنها لا تسمح لأحد بالاعتداء عليه حتى يخرج عن جوارها..»

ثم يقول: «وكانت كل قبيلة ترشح من بينها سيداً لزعامتها، وهي لا تختار زعيمها إلا عن رضاء وطواعية، لما تجده من صفات السيادة وهي الصفات التي تعدها القبيلة ذروة فضائلها، فلا بد للزعيم أن يكون شجاعاً، وأن يمتاز بالحلم، وبالكرم، وبالمهارة في فنون القتال وقيادة

(*) طبعة دار المعارف من هذا الكتاب سنة 1961.. الصفحات من 43 و44 و45 وما بعدها.

المعارك. غير أن هذا الزعيم لا يكون حاكماً مسيطراً، فالحياة في الصحراء «تسوي» بين الأفراد. وكان لكل فرد في القبيلة حق الاشتراك في المناقشات المتصلة بمصالحها، وحق معارضة رأي الزعيم إذا بدا له أن رأيه غير حكيم، أو غير مناسب للظروف».

ثم يعرض المؤلف محمد فريد أبو حديد في كتابه إلى تمسك العرب بهذه الفضائل التي يدعو إلى مثلها الدين فهو يقول:

«فالكرم فضيلة ذات قيمة كبرى، لأنه يمثل فضل الفرد على غيره من الناس. وكذلك كانت المروءة، والشجاعة، والوفاء، والمحافظة على العهد، فهي جميعاً فضائل اجتماعية، لأنها تمثل فضل الخير في الفرد نحو غيره من الناس...».

وفي نفس موضوع الفضائل العربية يعود المؤلف فيقول عن العصر المسمى بالجاهلي في حياة العرب:

«فالعصر الجاهلي بالنسبة إلى الأمة العربية كان عصراً خصباً، حافلاً بصور المثل العربية العليا. وإليه يرجع الكثير مما تكونت به الشخصية العربية، وما تحددت به مقاييسها في القيم الاجتماعية والخلقية كالكرم والشجاعة والوفاء، وحفظ حرمة الجار، والأنفة من الذل، وبذل الحياة والأموال في سبيل المحافظة على الشرف، وتقديس معنى الحرية، والصبر على الشدائد..»

ثم يقول في عودته إلى طبيعة البيئة الصحراوية ومناخها ومعالمها بجزيرة العرب:

«ولا شك أن الصحراء كانت دائماً حصناً منيعاً للعرب، فليس فيها من الطعام والماء ما يكفي لمئونة جيش كبير، وليس فيها من العمران ما

يمكن لأعداء العرب أن يستظلوا به إذا أرادوا غزوهم، وكانت خيبة أبرهة الحبشي في محاولة هدم الكعبة وإخضاع قريش من أكبر الأحداث في نظر العرب عامة، حتى إنهم صاروا يؤرخون حوادثهم بعد ذلك بالنسبة إلى العام الذي سار فيه أبرهة بفيلته الضخمة لغزو مكة، وكانوا يسمونه عام الفيل..»

ثم يقول من ظواهر وكوامن التوجه نحو مستقبل الوحدة فيما بين قبائلهم برغم تنازعها:

«ومن المظاهر التي تدل على شعور العرب بوحدتهم في الجاهلية على رغم منافساتهم القبلية أنهم حاولوا تنظيم العلاقات بينهم حتى لا تقضي الفوضى الشاملة عليهم. فكانت القبائل تعقد المخالفات فيما بينها حتى لا يتجرأ أعداؤها على مهاجمتها منفردة، ولكن هذه المخالفات لم تؤد إلى منع الحروب فيما بينهم بل جعلت حروبهم تزداد شدة لوقوعها بين مجموعات متعادية من القبائل. على أننا نلاحظ أن شعور العرب بالعدالة كان عنصراً هاماً في حياتهم المضطربة، وفي عقد محالفاتهم أو نقضها».

ثم يقول في نفس المعنى:

«ولكن أكبر المظاهر الدالة على شعور العرب بوحدتهم كانت تتجلى حين تتعرض بعض القبائل لاعتداء أجنبي من إحدى الدول المحيطة بجزيتهم.. وكان من أوضح الأمثلة على شعورهم بالوحدة موقفهم من وقعة «ذي قار» التي وقعت بين الجيش الفارسي وبين بعض بطون قبيلة تغلب على الحدود الشمالية لجزيرة العرب. فقد اجتمعت قبائل الحدود ووقفت مع تغلب في شعاب ذي قار وأحرزوا فيها نصراً باهراً على الجيوش الضخمة ذات العددوالعدة...»

ثم يقول العالم المؤرخ محمد فريد أبو حديد فيما له مغزاه من استشهادنا بأقواله:

«وقد تجمعت آثار هذا الشعور وبلغت ذروتها قبيل الإسلام، حتى إنه ليحق أن نقول إن نفوس العرب كانت قد نضجت للوحدة في ذلك الوقت، وتبلورت فيها مواريث عصر البطولة الجاهلي، واستعدت للصقل والتهذيب وتحقيق «غاية» حين يتهيأ لها وجود الدافع الذي يدفعها إلى التجمع والتحرك. فليس ببعيد من هذا المعنى ما يردده مؤرخو العرب إذ يقولون «إن العرب كانوا يشعرون قبل ظهور الإسلام بقرب انبعاث رسول منهم، يجمع كلمتهم، ويوجه ما فيهم من قوى كامنة، وينقي حياتهم من شوائب الفوضى والقسوة والعنف، ويحقق آية مولد أمة عربية واحدة..»

أليست مظاهر جاهلية اليوم أقرب. مع كوامن الخير فيها – إلى جاهلية الأمس.. وأليس طريق الوحدة والتجمع، والقوة والرشد، .. هو نفس الطريق.. ومن نفس هذا المصدر المنير والمضيء في آية الله المحفوظة في القرآن الكريم؟!

الفصل الرابع

مؤثرات العقل العربي تقود العالم

بصورتيه المتباعدتين:

أبناء إسماعيل وبني إسرائيل

يبقى بعد ذلك أن نقدم الجواب عن هذا السؤال القديم الجديد الذي تطرحه شعوب الأرض من غير العرب على نفسها مع تعاقب الأزمنة والعصور.. إنه السؤال الدائم عن هؤلاء العرب الذين أشرقت من آفاق بلادهم شمس الرسالات الدينية التي تنزل بها وحي الله تحت أسمائها المختلفة.. هذه الرسالات التي أثرت في مصائر هذه الشعوب شرقاً وغرباً.. أثرت في فكرها.. وفي لغاتها.. وفي معتقداتها.. وفي حضاراتها ومصائرها..

إنه السؤال المتجدد الصيغ، والمتعدد الأهداف بين كل من الفضول، أو التقدير، أو العداء.. إنه السؤال حول ما يمكن تسجيله من هذه الخصائص الغالبة على أخلاق وملكات وغايات هؤلاء العرب، أو هؤلاء «الساميين» كما انتقلت هذه التسمية الخاطئة عن العرب إلى العصر الحديث نقلاً عن سفر التكوين في العهد القديم من أسفار اليهود..

ويمضي السؤال بأصوله وفروعه، مسيطراً على اهتمامات المفكرين من الأصدقاء أو الأعداء، ومن الجادين المنصفين أو الغائبين الحاقدين، حتى ينتهي إلى هذه المواجهة الحتمية حول الشعوب الأجدر بقيادة حضارة العالم.. الشعوب التي تؤهلها أفكارها ومعتقداتها وقدراتها لكي تكون القدوة والأسوة لغيرها من الشعوب في بناء هذه الحضارة الإنسانية الراشدة، والمنشودة بالسواسية والعدل والإسلام، في أمل العالم وضميره وغايته منذ الإنسان الأول.. فمن تكون هذه الشعوب الأجدر بالقيادة الحضارية، والأسوة السلوكية.. هل هم العرب.. الساميون.. أم الأوربيون من أصلهم الهندي.. والآريون بشعارهم الاستعلائي العنصري..!؟

في الجواب عن هذا السؤال تدفق خيال التفلسف الأوربي وراء الجدران، وبجوار المدافئ، وبخاصة في العصر الحديث، عصر الثورة الصناعية والاستعمار، وعصر الصراع وراء شعارات المذاهب الاقتصادية

التسلطية للسيادة على العالم، وسرق موارد المستضعفين، وإبادتهم البطيئة بأحدث وأخبث الوسائل، كما أنه عصر سيطرة أدوات الرصد والتصنت، والإرهاب والتدمير، وغرائب الترف والشذوذ.. في هذا العصر تفجر الخيال الأوربي الجامح لكي يكرس الاعتقاد المتعسف – إلا في القليل منه – بأن «الساميين» أي العرب واليهود، جنس من البشر أدنى قدراً وفكراً وتحضراًوثقافة وفنوناً من «الآريين» الذين هم الهنود ومن خرجوا من أصلابهم من اليونان والرومان والجرمان وبقية الأوربيين.. بل لقد مضى أصحاب هذا الخيال الجامح الشاطح فحاولوا عندما وصلوا على موجات الاستعمار إلى أرض العرب في قلبها، وحتى الحافة من شرقها وغربها – أن يزرعوا بسيطرة الاحتلال الانجليزي والفرنسي على هذه الأوطان، وهيمنتهم على مناهج التعليم – مثل هذا الزعم الفاسد، والتزييف المتعمد لحقائق التاريخ، على الأجيال الناشئة من أبناء العرب، الذين حاولوا قطع الطريق بينهم وبين أصالتهم ومقوماتهم، بل قطع لسانهم العربي ليخرجوا مرة واحدة عن ذاتهم وحقيقتهم، كما فعلوا ذلك بكل الهمجية والوحشية حين فرضوا اللسان الفرنسي على الجزائريين في كل مراحل التعليم، وفي كل صور الحياة، حتى هوى الجزائريون فعلاً عن صهوة عروبتهم وجنسيتهم، وديانتهم وتراثهم، في أعماق ميتة فرنسية بشعة لم يتحقق لهم النشور منها إلا بعد ثورة فدائية باهظة الثمن، دفعوا فيها مليوناً من كرام الشهداء من الرجال والنساء..!!

الوحدانية والبساطة:

في هذا المجال للتهجم والانتقاص من العرب أو «الساميين» نعود إلى المستشرق الفرنسي إرنست رينان، الذي دار رأسه مدحاً وذماً في العرب، وإنصافاً وجهلاً بالإسلام، لنقدم من كلامه في مقدمة هذه الحملات

الهاذية المستعلية، التي يختلط فيها العلم بالجهل، والإنصاف بالجور، والمدح بالذم، وذلك حيث يقول في كتابه المشهور «تاريخ اللغات السامية»:

«الجنس السامي –أي العرب – أدنى من الجنس الآري إذا قورن به، ذلك أن الجنس السامي ليست له هذه الروحانية التي عرفها الهنود والألمان. وليس للجنس السامي هذا الإحساس بالجمال الذي بلغ حد الكمال عن اليونان. وليست له الحساسية الرقيقة العميقة التي هي الصفة الغالبة عند الكلتيين، أي سكان فرنسا والبلجيك. وإنما الساميون بديهتهم حاضرة ولكنها محدودة. وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب. فالتوحيد هو أهم خصائصهم. وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم. ففخر الساميين في أنهم أول من عرف الوحدانية، وعنهم اخذ العالم الديانات. والصحراء هي ملهمة الوحدانية لمنظرها الواحد المتشابه الذي يوحي للإنسان بشعور اللانهائية. وذلك هو السبب في أن بلاد العرب كانت الطريق دائماً إلى الوحدانية الخالصة. إذن فمن الخطأ القول بأن الإسلام هو أول ما عرفه العرب من التوحيد، فعبادة الله الواحد كانت دائماً قوام الدين عندهم، والإصلاح الديني عند الساميين – العرب – كان دائماً عبارة عن الرجوع إلى دين إبراهيم. وإذن فالعبادة السامية الحقة لم تتعد مطلقاً دين إبراهيم البسيط، وهو دين خال من التعقيد، وليس له لاهوت دقيق معقد.. وميل العرب إلى التوحيد يفسر لنا السبب في أنهم لم يكونوا من أصحاب الميثولوجيا – أي الأساطير الدينية – مثل الآريين»!!.

بهذا المدح المتناقض مع أهدافه نحو الذم يقرر المستشرق الفرنسي رينان في ذروة تفوقه الآري، وبعد إدمان الدرس والتحليل للكتب والمصادر العربية والعبرية، يقرر في أعجب تناقض مع نفسه أن العرب الذين هم مصدر «الوحدانية الخالصة» في الإيمان بالله، والذين عنهم وحدهم تلقى

العالم الديانات ومع العالم هؤلاء الآريون – هؤلاء العرب أدنى في نظره الكليل من الجنس الآري، لأن الجنس الآري – كما يزعم – يمتاز بالإحساس بالجماع الذي بلغ حد الكمال، وبالحساسية الرقيقة العميقة... فهل التخلق بأخلاق الدين والالتزام بشرائعه – والعرب هم مصدر هذا الدين بجميع رسالاته إلى الآريين وإلى العالم – هل هذا الدين الداعي إلى وصايا المحبة والرحمة، والألفة والإيثار، والمساواة والعدل والسلام – يتنافى مع «الحساسية الرقيقة العميقة» ومع الإحساس بالجمال، بمعنى جمال الخلق في السموات والأرض، وليس جمال «الشهوات البهيمية والتماثيل والصور العارية..»؟!!

الوحدانية الخالصة التي هي في الديانات الثلاثة مشرق النور بدعوة الأخلاق والتعاطف والطهر والنقاء والصفح في العالم، والتي تنهج نهج دين إبراهيم البسيط... هل هذه الوحدانية المشعة بنورانيتها عبر عصور التاريخ، باتجاه كل العالم، والتي لا تزال هي العصمة من البغي والحقد والتظالم، ومن العدوان والاستغلال والتفرق، ومن الخمر والجنس والعنف.. هل هي المبرر المعقول لدى الآريين لكي يكون العرب أدنى في القدرات الإنسانية منهم، وأقل في المؤثرات البانية لآمال البشر في العدل والسلام والمحبة، وفي العلم والعمران والتقدم، بالنسبة إليهم..؟!

إذن فهل يستطيع رينان وغيره – ممن قرءوا تاريخ الآرية القديم والمعاصر، كما قرءوا وعاينوا في بلادهم آثار العرب العالمية والعمرانية والدينية والثقافية.. أن يجيبنا عن هذه الأسئلة البسيطة حول حياة هؤلاء العرب، مصدر الوحدانية البسيطة بغير تعقيد منذ فجر التاريخ إلى اليوم... وهل فيها مثال واحد من هذه الموبقات الثقيلة، والوحشيات المتتابعة، وحتى

اليوم، في جميع مراحل هؤلاء الآريين.. ذوي الحساسية الرقيقة العميقة..!؟.. إننا نسأل رينان وجميع من هم على شاكلته:

هل ظهر على أرض العرب في كل عصورهم التاريخية، السابقة كثيراً للهند واليونان وغيرهم من الآريين.. هل ظهر مثل مدرج روما المسمى Collosseum.. والذي كان جمهور روما – الرقيق الإحساس جداً – يشهد فيه بحضور الإمبراطور الاحتفال بطرح الأسرى والمحكوم عليهم ظلماً بالموت، ليموتوا رعباً ونهشاً بأنياب الأسود المعدة لذلك، في حين أن الإمبراطور المفترس المجنون يقهقه فرحاً بسلطانه، وفخوراً بدمويته، ومن حوله رعاياه المفترسون الصغار يضجون بالفرح الوحشي تحت أقدام سيدهم..!؟

هل ظهر بين العرب في كل تاريخهم الديني المنير، وبرغم عصور غفلاتهم ومنازعاتهم التي يفيقون سريعاً بعدها.. هل ظهر بينهم مثل المجنون المتوحش.. الإمبراطور «نيرون».. الذي أحرق روما بعد أن طال البغي بها ومنها.. في حين جلس هو على قمة منها يقهقه بفرحه الجنوني، ويسكر من سعادته الوحشية، وهو يرى النيران بوحوش اللهب، وأنياب الشرو، تلتهم رعاياه، وتدمر عاصمة مظالمه.. ومظالم الذين سبقوه..؟!!

وإذا تخطينا التاريخ الأسود لعصر النبلاء، وقصص التجارة بصكوك الغفران، وما بعد ذلك من ولوغ «ذو الحساسية الرقيقة» من الآريين في دماء بعضهم، ودماء من حولهم، حتى نصل إلى العصر الحديث.. عصر الاستعمار.. ثم نكتفي بوصمة الأبد، وعار الماضي والحاضر والمستقبل، في وجه الآريين الإنجليز، الذين مارسوا بعد الكشف عن القارة الأمريكية وحشية سرقة البشر من الأفارقة السود، في أفظع وأقسى وأخبث تجارة ببني الإنسان.. والذين عدا القتل، وهتك الأعراض، ومواصلة

التعذيب خلال نقل الشحنات الآدمية المسروقة إلى أمريكا، بما انتهى إلى قتل الملايين منهم قتلاً أو غرقاً – فإنهم وهم يبيعونهم بعد عزل الأم عن بناتها، وعزل الرجال والشباب عن ذويهم. كانوا يسلمونهم إلى المستعمرين المتوحشين الأوربيين «الآريين» الذين اغتصبوا أرض أمريكا بإبادة الهنود الحمر سكانها الأصليين.. كانوا يسلمونهم إلى السخرة القاتلة من الإجهاد، وإلى الإذلال الخالي من أي هدف إلا الافتراس، والمتعة بالقتل، وسلب الإرادة واغتصاب المتعة البهيمية..!!

فهل.. والكلام لرينان، وللكثير من الذين وقفوا ويقفون في صف الانتقاص من العرب، بل والادعاء بالمفتريات والأكاذيب عليهم.. هل في كل تاريخ العرب منذ فجر هذا التاريخ.. شيء مهما قل من مثل هذا العار الأبدي..؟!

وأخيراً وقد جاء دور القصاص الإلهي من هذه الحضارة الآرية العدوانية الوحشية، بما هو ظاهر في كل مكان شرقاً وغرباً من بوادر انهيارها.. فهل اتعظ الآريون.. وهل حدث في أي مرحلة من مراحل اتساع مدى الحضارة العربية الإسلامية، وتوهج إشراقها حتى أطراف العالم.. هل حدث ما هو قريب الصلة أو بعيدها بمثل ما شهدناه ونشهده في هذا العصر، من التجارة بالحروب، والأسلحة والغزو المخطط لإبادة الشعوب الصغيرة، والغزو الفكري والاقتصادي في محاولة يائسة لتقويض صرح الوجود العربي في العالم.. واغتصاب أرض العرب.. وتهديد الإسلام..؟!!!

الآريون والفلسفة:

ثم يمضي رينان بهذا الاختلاط العقلي الآري – بما هو فيه مثال على غيره من رفاقه – فيقول عن العرب من الذم الذي هو بموازين العلم والعقل مدح لا ريب فيه:

«يبدو أن التفكير الفلسفي للبحث «الحقيقة!» كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندي الأوربي، أو الآري، الذي يمتد من الهند إلى أقصى الغرب، وإلى أقصى الشمال، والذي كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن في تفسير الخالق والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً. وقد ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي. أما العرب الساميون فإنهم بدون تفكير أو تدليل – أي بدون فلسفة – قد وصلوا إلى صفى وأنقى صورة دينية عرفها التاري»..!!

ثم يمضي رينان أيضاً فيعلل هذا الترقي – بغير فلسفة – إلى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ – بأنه قصور عند العرب عن نعمة «الدهشة» التي يتمتع بها الآريون.. فهو يمدحهم تحت توهمه بأنه يذمهم فيقول: «العرب تنقصهم الدهشة التي تدعو إلى التساؤل، والتفكير، لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء»!!

وبالطبع فإن رينان، الفيلسوف الآري الفرنسي، الواسع الاطلاع في اللغات السامية العربية والعبرية وغيرها قد حاول قراءة القرآن الكريم، ولكنه لم يستطع كعادته، وبمنهجه الآري، أن يحسن «التفكير» فيه.. وبالتحقيق فإنه لم يفهم أن «التفكر في آيات الله» كما أوضحنا قبل – هو أول الطريق العلمي والحسي إلى التيقن بهذا البرهان المتجدد في حركة السموات والأرض على الله.. كما أنه على التحقيق لم يتسع بتفكيره الآري «الرقيق جداً» أن يفهم أن «التسبيح» في بيان القرآن الكريم هو اقتران دهشة المؤمن مما يراه من عجائب وبدائع خلق الله وآياته بهذا الإيمان المشرق على قلبه، وعقله. والذي تتحول به الدهشة في نور اليقين، إلى حمد لله على نعمه، وإلى تسبيح له بتمجيد آلائه، وإلى حث الخطى بالتفكير

والسعي إلى المزيد من الإيمان به، ومن العلم المقرب إليه، ومن الدعاء المستجاب به.. سبحانه وتعالى عما يشركون.. وعما يصفون!!

العرب واليهود:

والآن في مواجهة هذه الآراء الانتقاصية للعقل العربي وخصائصه وقدراته، نلخص الحقيقة التي يتعامى عنها، قصوراً وخلطاً، هؤلاء الدعائيون لتفوق الرجل الأبيض بفلسفته وأساطيره، وهي أن العرب منذ فجر التاريخ أقاموا بالدين، والعقل، والعلم، أقدم الحضارات الإنسانية العمرانية المؤمنة.. هذه الحضارات التي كانت بامتدادها من الجزيرة العربية باتجاه أحواض الأنهار في مصر والشام، ثم آخر الأمر باتجاه شعوب الهند واليونان، الذين نقلوا عناصر حضارتهم الأولى – في حدود مدركاتهم الآرية – من أصول عربية كنعانية ومصرية.

هذه الحضارة العربية الأم، بالنسبة لكل العالم، انبثقت من جنوب اليمن، حيث بلغ الرقي الحضاري والمعماري وباختراع الكتابة وغيرها من أدوات الثقافة – قبل ظهور اليونان بآلاف السنين – حداً في أرض عاد كانت به أصلاً – في موجات الهجرة إلى أرجاء الوطن العربي – لحضارة قدماء المصريين، وحيث لا يزال علماء الآثار يجدون من هذه الدلائل في تنقيبهم بمواضع حضارتها البائدة ما يؤكد هذه الحقيقة ويزيدها وضوحاً. ولقد نزل القرآن الكريم بما يجعل ذلك غير موضع للشك، حيث يقول تعالى في ذكر وترتيب ظهور الحضارات العربية الأولى بدلالة مبانيها الشامخة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 6- 10]

وعندما جاء وعد الله ببلوغ هذه الحضارات الدينية مبلغ الكمال والرشد، والتحصن من مخاطر الفتنة بالترف، الأمر الذي انهارت بسببه هذه الحضارات اليانعة بضربات إلهية – ظهر في مكة محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين، ليقود العرب في نور القرآن، ومحكم شرعه، إلى هذه الوحدة الأولى من نوعها بين المؤمنين.. الوحدة المنتصرة بالحق، والمؤتلفة بالصدق، والمشرقة بوفرة العطاء، والباقية بخلود مصدرها في القرآن. وبذلك قام على الأرض، وفوق جزيرة العرب وكافة أرجاء الوطن العربي، أول مجتمع كامل للمؤمنين يقوم على نظام ودولة، وعلى كتاب وأمة، وعلى دعوة وأسوة..

الطريق التحريفي لليهود:

كان انتصار الإسلام في دعوة محمد هو تمام الوعد لإبراهيم من الله بأن تكون الرسالة الخاتمة، والمهيمنة على ما سبقها من الرسالات التي نزلت على أبناء إسحاق هي للرسول المصطفى من أبناء إسماعيل، وهي ببيانها العربي المبين أمانة هؤلاء العرب ومن والاهم وناصرهم من المسلمين، وممن هداهم الله إلى الإيمان بها من أهل الكتاب، الذين صدقوا بهذه الرسالة إلى محمد، كما صدقوا بما نزل من هذا الحق على موسى وعيسى، وقالوا: كل من عند ربنا.

ولكن بعض اليهود العرب مالوا بأطماعهم، وغرورهم، وبسبب خضوعهم الطويل لمن أذلهم، إلى تصديق ما أدخله الأحبار منهم، وعلى أزمان متلاحقة، من التحريف لما نزل إليهم من الله. وبذلك فقد جنحوا بعيداً.. مع تعاقب العصور وتوالي الضربات – عن دعوة إبراهيم وعن وصايا الله إلى موسى، متوجهين ومتساقطين بعنصريتهم فوق هذا المنزلق من «الصهيونية» العنصرية والعدوانية الكهنوتية، التي يرون بها – مثل الآريين

وأكثر منهم – أنهم أحق البشر بسيادة العالم، وذلك لمحض أنهم «أبناء إبراهيم»، وليس لأنهم المؤمنون الصادقون والعاملون بدين إبراهيم!

في نشوة الوهم بهذا التفوق العنصري، وبمجرد عصبية الانتماء إلى رسول أو جنس، هذا الوهم الذي ظهرت أعراضه منذ البداية في رحلة خروجهم الظافر من مصر، ومن نبر فرعون، بقيادة موسى، بدءوا وهم على طريق الخروج فآذوا موسى بمعصيته، وعبدوا العجل الذهبي رمزاً لما أشربت به قلوبهم من حب المتاع، ونزعة التسلط بقول المال، وبسبب ذلك، وما لقبه المسيح من بعد من إيذائهم، وما لقيته البارة البتول مريم من غطرستهم وتقولاتهم – غضب الله عليهم، وتلقوا من الضربات المنذرة ما تلقاه غيرهم من العرب عندما كانوا يكذبون رسلهم، ويجحدون بآيات الله ونعمته عليهم..

وهكذا حين كان حواريو المسيح وتلاميذه ينشرون المسيحية من بعده في الأرض، وقع الشتات الكبير على بني إسرائيل ابتداء من سنة 70 ميلادية حيث أحرق الرومان أور شليم بقيادة تيطس بن فسباسيا قائد نيرون، إلى أن جاءت الضربة القاصمة على يد الإمبراطور هادريان الذي استأصل الوجود اليهودي من القدس وفلسطين، لكي يتشتتوا بعد ذلك في الأرض، في مرحلة من مراحل عقاب الله الراصد لهم، ولتحريفاتهم وغرورهم وعدوانهم...

على أن هذا الشتات والضياع لم تلبث آثارهما أن خفت عن اليهود باتساع صدر العرب لأبناء عمهم. ثم ظهر الإسلام واليهود يحلمون بإقامة «دولة مستوطنات» لهم بالمدينة، وخيبر، وتيماء وشمال الحجاز، زحفاً بظهورهم باتجاه فلسطين. فلم يتردد محرفوهم، ومتغطرسوهم، وعبدة العجل منهم في أن ينقضوا مواثيقهم مع رسول الله، وأن يظهروا ويبطنوا

الكيد للمسلمين، فكان ما شاء الله من اقتلاع مستوطناتهم، واجتثاث جذورهم من الحجاز، وعودهم بعد هذه الضربة القاصمة لأوهامهم إلى التجوال الهائم والمتربص بأرض العرب بالشام، والعراق، وبالمغرب العربي..!!

ومع كل ذلك فقد عاد العرب المسلمون فاتسعت صدورهم وأحلامهم مرة أخرى لهؤلاء المحرفين لما نزل إليهم من الله، والطامعين بنوبات الحمى الصهيونية التي تعتريهم، فتذهب بصوابهم، في أن يسودا العالم، وحتى أرض الوطن العربي، بل ارتكازاً على نقطة مركزية تأخذ في التوسع والاتساع حتى تستوعب بالقوة أو بالغدر أو بالكيد.. ما بين «النيل والفرات»!!

لقد اتسعت صدور العرب المسلمين لأبناء عمهم اليهود، مراعين الأواصر القديمة منذ إبراهيم، وناظرين إلى وداعة قلة منهم مؤمنة بصدق ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الدين والكتاب – فأفسحوا لهم مجال الأعمال، وأظلوهم بظل وصية الله بأهل الكتاب، فعاشوا أطيب العيش في سعة هذا الأمن السابغ، يتاجرون ويربحون، ويتنقلون ويستثمرون، مع إعفائهم من القتال مقابل جزية قليلة تؤدى لتقابل معنى الإقرار بسيادة الدولة العربية، التي اتسعت للصفح عنهم، ولحرية حركتهم ونشاطهم..

ولقد كان عصرهم الذهبي في ظل الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، حيث لم يتركوا فناً من فنون الاستغلال، وعملاً من أعمال التفرقة، والتجارة في سوق اللهو والمتاع، وتنمية الشعور العدواني بينهم من جديد بتحريفات التفوق العنصرية الصهيونية، حتى أجهزوا على هذه الدولة الزاهرة في إسبانيا.. هذه الدولة العربية الإسلامية التي تحقق بها لأول مرة تعريب قطر أوروبي بأكمله تحت اسم الأندلس بعد أن كان يشتمل على

إسبانيا والبرتغال.. لقد أجهزوا بالموت البطيء، والتمزق المتلاحق، على هذه الدولة التي أضاعها العمران العربي ثمانية قورن متوالية فوق ظلمات أوروبا في عصورها الوسطى.. فكان أن لحقتهم على جريمتهم هذه نفس ضربات الله القاصمة بشتاتهم!!

لقد كانوا هم أول الغرقى، وأذل الضحايا، فمضت بقاياهم، وشواردهم حاملة على نفس طريقة الخروج من مصر مسروقاتهم من بقايا الأرض التي احترقت بهم، إلى حيث لاقوا الاغتراب في حارات اليهود في أوروبا أو «الجيتو» قروناً طويلة قبل أن تعود الحياة مرة أخرى، وفي امتحان جديد للحية الصهيونية السامة، التي أخذوا تحت شعارها، وبتدبير متواصل، وغيبة كاملة عن الوعي، وعن العظة بما كان، يؤسسون للصهيونية الغاشمة المعاصرة.. يؤسسون لها من أول حاييم مونتيفيوري 1827 وحتى حركة بيلو سنة 1882 وحتى تيودور هرتزل بمؤتمر بال سنة 1897 ثم إلى بن غوريون، ومن ثم إلى مناحيم بيحن، باتجاه اغتصاب فلسطين، والقدس، ومحاولة بناء دولة التحريفات التي تتسع فوق أرض العرب حتى تستوعب: من النيل إلى الفرات..!!

على أننا سنترك هذا الآن، واثقين من أن الخيار سيكون للإسرائيليين أنفسهم، فيما بين ضربة شتات جديدة ستصيبهم ولا ريب إذا أصروا على مواقفهم من الاغتصاب لحقوق الفلسطينيين، ومع الطمع في أرض العرب، ومن اعتبار «القدس العربية» عاصمة أبدية لهم، وهذا إذا ما استبد بالرأي فيهم قادة هذه الصهيونية من الأوروبيين المتهودين، أو من اليهود الأوروبيين، دون هذه القلة الموادعة من اليهود العرب أو الشرقيين، الذين لا يطلبون أكثر من الأمن الذي ألفوه بين أبناء عمهم العرب، ومن العيش معهم مرة أخرى تحت ظلال سلام لا عدوان فيه، ولا عنصرية، ولا

توسع بدولة خرافية على أرض العرب، دولة إسرائيل الكبرى الوهمية... من النيل إلى الفرات!!

إننا نترك هذا الآن لنواجه معاً نحن واليهود هذا لادعاء الآري بالانتقاص من العقل السامي العربي، الذي قدم للعالم ما هو بأشد الحاجة إليه من الدين الحق، ومن الوحدانية الخالصة، لننظر ماذا قد الآريون لأنفسهم أمام سيطرة اليهود العلمية، والمالية، والفلسفية، والسياسية، عليهم منذ استوعبوا حياة الأوروبيين وتكيفوا بها بعد شتاتهم الأليم من الأندلس منذ القرن الخامس عشر..

نعم.. لقد عاش العرب أمناء على أمانة الدين الحق، المستقر على مصدره المبين والخالد في القرآن الكريم.. لقد عاشوا عصورهم كلها، حتى في فترات الغفلة أو الضعف، لا يحرفون الدين، ولا يغيرون من أهدافه، ولا يستعلون على أحد به عربياً كان أو أعجمياً.. في حين عاش اليهود في مراحل النوبات والحمى بتحريفاتهم، وعنصرية صهيونيتهم، يستغلون الدين ولا يعملون به، ويتعاظمون بالانتساب إلى إبراهيم ولا يصدقون الإتباع له.. ومع ذلك فالسؤال الآن هو ادعاء الآريين أنهم فوق العقل العربي والسامي.. فأين كانوا حينما لعب اليهود بعقولهم، وتاجروا بأحاسيسهم «الرقيقة العميقة» وحكموهم من وراء الأستار، بأشتات من بقايا العلوم العربية في ذاكرتهم، وبمخططات من وساوس السيادة على كل العالم باسم «اليهود» أبناء إبراهيم وإسحاق، حتى صار الأوربيون بالنسبة إلى سلطانهم الخفي يتحركون حركة التابع الخاضع تجاه المتبوع المطاع. وليس أدل على ذلك من انتشار التنظيمات السرية الغربية، الأوروبية في ظاهرها، والصهيونية في قيادتها وأهدافها، وهي التنظيمات القديمة والمعاصرة المنبثقة من ظلمات أوهام المتشبثين بعودة هيكل سليمان،

وتسخير الجن من شعوب الأرض، وبناة الماسونية، وفزوعها، واليونيتيريانز، والهوسبيتالرز.. إلى آخر ما لا ينفد من نفثات الحية السامة، وجعبة الحاوي..!!

اليهود في أوروبا:

وعندما نورد شهادة الشهود الأوروبيون على سيادة اليهود على الفكر الأوروبي الحديث، وعلى النشاط الحضاري المعاصر للأوروبيين، من أقصى الشرق في روسيا السوفييتية وحتى أقصى الغرب عند الساحل الغربي لأمريكا العلمانية – وذلك بعد مرحلة سيادة الحضارة العربية والعلوم والثقافة واللغة العربية على أوروبا في بواكير عصر نهضتها، وخروجها من ظلمات عصورها الوسطى بهذا الأثر العربي – أقول إننا حول سيادة الفكر اليهودي على أوروبا وأمريكا في القرنين الأخيرين نبدأ بالاستماع إلى شهادة المستشرق الفرنسي يوسف إرنست يونان نفسه، والذي يحمل اسم أحد أبناء يعقوب اليهود، عن هؤلاء اليهود «الساميين» والعرب في حقيقة جذورهم، بعد أن نقلنا رأيه المختلط عقلياً وهو يقرر «أن العقل السامي العربي أدنى من العقل الأوربي الآري».. إنه يقول مسترسلاً مع حيراته وتناقضاته بغير شعور بالخجل من هذا التناقض، وكأنه لا يقرأ ما يكتبه، وإذا قرأه فإنه لا يعرضه على ضميره.

إنه يقول: «وليس في ماضي النوع الإنساني ما يثير اهتمام الفكر الفلسفي سوى تاريخ ثلاثة شعوب: تاريخ إسرائيل، والتاريخ الإغريقي، والتاريخ الروماني»!!

بأمثال هذه الشهادة من أقوال عدد من المفكرين الأوربيين البارزين في العصر الحديث تظهر سطوة هذا التأثير اليهودي على تركيب وقيادة العقلية الأوربية بكل ما تنساق إليه بهذا التأثير من فلسفاتها ومذاهبها

وأيدلوجياتها المعاصرة بما يقطع بهذا التأثير المتفوق، والأعلى، وإن يكن باتجاه السيطرة بوسائل الغواية والتحريف، وليس بالدين الحق، لهذا الفكر السامي «العربي» في صورة جنوحه الصهيونية على أصالته على كل أوجه النشاط الأوربي والأمريكي المعاصر..!

فهذا هو تولستوي عملاق القصة الروسية يقول من تصوره – وهو غارق تحت الضباب والثلوج – لأهمية التأثير اليهودي على معتقدات العالم.. وبالطبع روسيا.. على الأقل ابتداء من راسبوتين.. إنه يقول:

«اليهودي هو المنهل الذي اغترفت منه جميع الشعوب عقائدها»!!

ويقول جورج إليوت القصاص الإنجليزي في مبالغة تحكي عمق تأثر الإنجليز باليهود قرابة ثلاثة قرون متوالية:

«الجنس اليهودي لا يزال بمثابة القلب الخفاق في الحياة البشرية، بل هو الذي يظهرها العالم تحت ردائه المنطقي المعقول»!

ويشرح هوكسلي أحد العلماء النظريين لعلم الأحياء هذا السر وراء مبالغة إليوت فيقول:

«تأمل تلك الحقيقة التاريخية الثابتة وهي أن التوراة في مدى ثلاثة قرون قد نسجت خيوطها في حياة إنجلترا وتاريخها، وامتزجت بكل ما فيها من شعور، بل أصبحت رمزاً لتفوق بريطانيا القومي»!

ويقول القصاص الإنجليزي أيضاً وولتر سكوت في كلمات رمزية مبهورة غير مفهومة:

«التوراة هي الكتاب الرهيب الذي يحوي سر الأسرار الإلهية»!!

الفلسفة الأوربية الحديثة:

وننتقل من شهادة هؤلاء الشهود على مدى تأثير العقل اليهودي السامي العربي على المسار العقلي والثقافي والسياسي لأوربا في العصر الحديث – إلى إلقاء نظرة فاحصة وإن تكن عابرة إلى هذا الواقع الجلي من سيطرة العقلية اليهودية الصهيونية، الجانحة بأهوائها، على الفكر الأوربي، وعلى الفلسفة الأوربية التي هي فخر الأوروبيين الآريين منذ عصر اليونان كما يزعمون، هذه الفلسفة التي يرجع أكثرها منذ القرن السابع عشر إلى فلاسفة يهود، وليس إلى فلاسفة آريين أوروبيين!!

ونبدأ فنذكر كيف بدأ القرن السابع عشر – بعد سقوط الحكم العربي في الأندلس وهجرة يهودها ومعهم محفوظاتهم ومقتبساتهم عن فكر وعلوم الحضارة العربية بها إلى أوروبا – بظهور الفيلسوف اليهودي «باروخ سبينوزا» الذي ولد في أمستردام من أبوين يهوديين كانا قد فرا من الاضطهاد في البرتغال في نهاية القرن السادس عشر، وهما أصلاً من يهود إسبانيا أو الأندلس، وقد تربى سبينوزا الذي يحمل اسمه العبري «باروخ» تربية يهودية، فتعلم الإسبانية والبرتغالية والعبرية، كما تلقى قسطاً كبيراً من علومه على يد الحاخام منشه بن إسرائيل وهو الذي تفاوض مع كرومويل بشان عودة اليهود ثانية إلى إنجلترا بعد طردهم منها.

الحرب النفسية:

على أنه لا يمكن أن يمر السرد التاريخي لحركة السيادة الفلسفية اليهودية على أوروبا، لتشكيل عقليتها «يهودياً»، وللسيطرة على حركتها، وابتزاز جهودها وأموالها «صهيونياً»، دون أن نتذكر ما توصل إليه الدهاء الصهيوني في جنوحه عن الحق، وطموحه إلى الأوهام، وذلك

عندما ظهر أول تفجير وأخطره للحرب النفسية على أوروبا، وجميع المتأثرين بها، أي عندما ظهر العالم النفسي، اليهودي النمساوي، الساحر والمضلل، وناشر الأمراض النفسية على أوسع نطاق: سيجموند فرويد!!

ظهر سيجموند فرويد المولود سنة 1856 والمتوفى سنة 1839، والذي جعل من نظريته الخداعية والمشوشة عن «النفس والجنس» وعن «القلق والكبت» وعن «العقل الباطن واللاشعور» تيهاً مخوفاً، ومصدراً خفياً لتفجير القلق، وبث المرض به، وبالكثير من «العقد» التي صاغها بمعادلاته الانقلابية التي جعل بها «الجنس» – هو المحور الذي يهدم به كل القوانين التي تحكم سعي الإنسان لحفظ النوع، بعد سعيه لحفظ الذات – محكوماً هذا السعي بفطرته التي توجهه إلى الإيمان بالله، والالتزام بشرائعه.

لقد قلب فرويد كل هذه القوانين رأساً على عقب، ونفخ في بوقه الساحر لتتحول الشهوات الجسدية إلى قردة تسيطر على حياة الإنسان وتقوده من غرائزه، ومن غواية تحرض على الفسق والعهر، بل وإلى إرهاب وتهديد لكل «المتطهرين» بالدين، وبالأمانة تجاه المجتمع، بأنهم سيهلكون بأمراض القلق والكبت و «الطهارة الجسدية» والصراعات الخفية فيما زعم أنه «العقل الباطن»! أي هذا – العقل الذي يجلس فيه فرويد القرفصاء لينفث أكاذيبه، وكأن الكبت، والقلق، وغيبة الشعور من وطأة الاستغلال الطبقي، وفقدان حرية الإرادة والتعبير، ليست كلها، أو أكثرها، من آثار النظم التعسفية التي تؤيدها الصهيونية اليهودية بكل جهودها تحت شعار الشيوعية الإلحادية التي تقدم الخبز وتمنع الحرية، والرأسمالية الاستغلالية العلمانية، التي تقدم الحرية، بعض الحرية، وتمنع الخبز، الذي تسرقه من عرق العامة والمستضعفين والأجراء..!!

وعلى الطرف المقابل من ذلك تظهر فلسفة المتهوس الممسوس اليهودي برجسون، الذي ينتشر – بدعوى محاربة المادية بالروحية – إحدى الفلسفات الرمزية، الشتاتية، البالغة حد الذهول في عقمها ووهمها، ولكن أصحاب الفكر الآري المتفوق يغرقون سعداء في سرابه، لأنه من الفكر السامي الذي زعم رينان أنه أدنى من الفكر الآري الأوروبي!

على أن سبينوزا، في أول المواجهة بين اليهود النازحين في ضربة الشتات الأليمة بالأندلس وبين أوروبا في مطالع نهضتها بعصرها الحديث – يبقى بكناياته المميزة له، وغير المألوفة في الفلسفة الأوروبية منذ اليونان، هو مؤسس المدرسة الحديثة للفلسفة الأوروبية بشهادة من جاءوا بعده..

لقد كانت كتبه المشهورة: «رسالة موجزة عن الله والإنسان وسعادته» و«رسالة في إصلاح العقل» و«الأخلاق» تؤكد نجاح جهوده الفكرية في صياغة ما نقلته أسرته إليه من خلاصات الكتب التي وضعها يهود الأندلس تلخيصاً، أو تهويداً، للثقافة العربية وعلومها في الأندلس، من أمثال ابن ميمون، وابن عزرا، وموسى القرطبي، لتكون مقبولة لدى الأوروبيين، وقادرة على تشكيل وتوجيه «التفلسف الأوروبي» باتجاهات ومذاقات وأهداف يهودية قريبة وبعيدة!

وهكذا عندما جاء الفيلسوف اليهودي الألماني الشهير هيجل بادر بتأكيد القيمة الفكرية والفسلفية لابن جنسيته سبينوزا، ومضى يحرض ونصح المثقفين الأوروبيين بقراءته، وهو يقول للناشئين منهم في حقل الفلسفة: «لن تكون فيلسوفاً حتى تقرأ سبينوزا أولاً»!!

ثم يتوالى بعد ذلك ظهور الفلاسفة في ألمانيا بعد أن أصبحت شبه مزرعة تجارب لبذور العقلية اليهودية «السامية» بعد أن كثر ارتحال الأسر اليهودية المضطهدة إليها، فظهر من هؤلاء الفلاسفة «كانت» في

كـونجزبرج سـنة 1724، وجوتـه الشـاعر والفيلسـوف اليهـودي في فرانكفـورت سـنة 1749. وهيجـل اليهـودي في شـتوتجارت سـنة 1770، وشوينهور في دانزج سنة 1788، ونيتشه في روكن سنة 1844..

وبقدر ما كان سبينوزا هو البوابة لنشاط الفلسفة اليهودية في أوروبا بطابعها «السامي» أو العربي برغم جنوحه وتحريفه، فقد جاء من بعده كل من الفيلسوفين اليهوديين: كارل ماركس – تريف سنة 1818، وماكس نوردو – بودابست سنة 1849، ليضعا ختاماً لهذه المرحلة النظرية، وليبدآ مرحلة المذاهب السياسية التطبيقية الواسعة، القابلة لإغراء الجماهير، وعشاق التزعم، بشعاراتها الاجتماعية المرتكزة إلى حقوق إنسانية، و«الملغمة» في أعماقها بمصطلحات ومخططات ورموز تساعد على استغلال اليهود وسيطرتهم على قادتها.. دائماً.. وحتى اليوم..!!

أما كارل ماركس فقد وضع بذور «الفلسفة المادية الشرعية» في كتابه «رأس المال» – وأما ماكس نوردو فقد وضع اللمسات الأخيرة في مخطط الغزو الصهيوني لفلسطين، واغتصاب وطن قومي على أرض العرب يكون المقدمة سهلة الابتلاع بالنسبة للشعوب العربية.. باتجاه «إسرائيل الكبرى» وذلك في كتابه «الانحلال» الذي أصبح بعده من أكبر أعوان هرتزل عندما بدأ برحلة التحرك باتجاه إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين.

أما في القاع الجماهيري لأوروبا وأمريكا، حيث تختفي وراء السحب قمم هذه الفلسفات ليظهر النشاط اليهودي الأوروبي، وفي العالم المعاصر، بقوة التلقين في الصحف، وعلى شاشات السينما، وفي القصص الهابطة السريعة التداول، فلا تزال الجماهير هناك وهنا إلى حد ما – تنقلب باستسلام وعجز، بل وفي فرح بائس، وتعاسة ضاحكة بلهاء، تحت نير هذه المعايشة اليومية لحصاد هذه الفلسفات والنظريات والمخططات

الصهيونية، التي ساد بها التأثير الصهيوني على أوروبا، وعلى من تأثر بها.. بغير اتجاه ظاهر إلى هذه الهاوية التي لا قرار لها، والتي أصبح العالم في أحداثه الأخيرة يندفع إليها.. ما لم يتداركه الله برحمته، فيرجع الصهاينة عن غوايتهم، أو تقع ضربة الشتات القاصمة والقادمة على رءوسهم..!!

فهل تقع هذه الآية قريباً.. هل تثوب الصهيونية اليهودية الأوروبية إلى بقية الرشد، وهل ترجع عن نهاية الشوط.. وهي التي نراها لا تقدم بضاعتها السرابية الوهمية القاتلة، ليهود العالم وسكان إسرائيل، الذين تعدهم لمخططات السيادة «المنتظرة» على جميع العالم عندما يغرق في هذه التيارات المتلاحقة من تحريفاتها وأوهامها..

هل يجتهد هذا الفرع السامي، العربي، من أبناء إسحاق ويعقوب، أن يستقي نفسه، عائداً إلى أقرب ما يربطه من الأواصر والمعايشة مع أبناء عمه العرب.. عائداً بغير عنصرية ولا توسع، وبغير خداع ولا تربص؟... عندئذ ولا شك سيتحقق له السلام الدائم بغير ضربات.. عندئذ سيعود إلى وعيه لحظات نادرة في الزمن، ليجد أن هؤلاء العرب – كما يعرفهم وإن أنكر أو تغابى فزمجر – هم الحق الأبقى.. والأصل الأوفى.. والرؤية الأبعد

نعم.. سيجدهم – كما حدث مراراً – هم اليد البيضاء، الممدودة له في ظل التعايش الآمن من أية حروب بشرية، أو ضربات إلاهية.. اليد الممدودة في عزة الصفح، ورحمة القربى، وجناح السلام.. السلام الذي عاش له وبه الأنبياء قبل إبراهيم.. وبعد إبراهيم..

فهل.. وهل..؟